وَلَا تَلْبِسُوا۟ ٱلْحَقَّ بِٱلْبَٰطِلِ وَتَكْتُمُوا۟ ٱلْحَقَّ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٤٣﴾

شرح الكلمات:

لا تلبِسوا: لبَس عليه الأمر لبسًا: خلطه وجعله مشتبها بغيره (الأقرب).

الباطل: نقيض الحق وهو ما لا ثبات له عند الفحص (المفردات).

التفسير: قوله تعالى: ﴿لا تلبسوا الحق بالباطل﴾ أي لا تخلطوا الحق بالباطل فتجعلوه مشتبها. وهذا دأب أعداء رسل الله دائما.. يأخذون من الحق شيئًا ويخلطون به الباطل ويثيرون ضجة ضد النبي قائلين إنه كاذب. كان اليهود في زمن الرسول ﷺ يعترفون بظهور كل العلامات المتعلقة بالنبي الموعود، ومع ذلك كانوا يحتجون حينًا بأن العلامة الأساسية له أن يظهر من بني إسرائيل، وتارة يقولون إنه سيظهر من أورشليم، وهكذا كانوا يحرمون العوام من قبول الحق؛ مع أن الأصل في قبول الحق أن يُفحَص ما إذا كان الموعود يحقق الغرض من بعثه أم لا؟ وهل ظهر في زمن هو في أمَسّ الحاجة إلى ظهوره؟ وهل تحققت بعض الأنباء المتعلقة به تحققًا ظاهرًا بلا تأويل؟ إذ إن بعض الأنباء تنطوي على معان مجازية وتحتاج إلى تأويل، لا شك أنه ورد في بعض المواضع خبر ظهور هذا الموعود من بني إسرائيل، ولكن هناك أخبارا عن مجيئه من بني إسماعيل في مواضع أخرى.. فيكون معنى ظهوره في بني إسرائيل أنه يرث بركاتهم، ويحل محلهم. وصحيح أن هناك كلمات تخبر بظهوره من صهيون، ولكن هذا يعني فقط أن المكان الذي يظهر منه الموعود، أي مكة المكرمة، يكون كصهيون من الأماكن المقدسة عند الله تعالى.

فعلى الرغم من تحقق العديد من العلامات الأخرى لهذا الموعود تحققًا حرفيًّا، وظهوره في زمن كان في أمَسّ الحاجة إلى ظهوره، وقيامه بأعمال قدّر له القيام بها.. فإن اعتراض بني إسرائيل بأن النبأ الفلاني لم يتحقق بعد، أو لم يتحقق تحققا حرفيا.. كل ذلك ليس إلا لَبْس الحق بالباطل.. ومحاولة ماكرة لصدّ الناس عن قبول الحق. ولكن مثل هذه المحاولات لم تُفلح في الماضي، ولا في زمن الرسول، ولن تُفلح في المستقبل.

وقوله تعالى: ﴿وتكتموا الحق﴾ أصله: ولا تكتموا الحق.. ويبين أسلوبا آخر من خداع بني إسرائيل، فقد كانوا يخفون الأنباء التي تبين صدق النبي ﷺ. فكأنهم كانوا يقاومون بطريقين: أحدهما خلط الأنباء عند ذكرها للناس، فمثلا كانوا يخلطون ما هو صريح منها بما هو مجاز يتطلب تأويلا، أو كانوا يخلطون بين الأنباء المتعلقة بالنبي الموعود وبين أنباء عن آخرين سابقين، ويقولون إنها أيضًا علامات الموعود. وهذا ما يفعله المشايخ بين المسلمين اليوم. فقد أخبر الإسلام بمجيء أكثر من مهدي، وقد جاء بعضهم وتحقق

فيهم ما ورد عنهم من أنباء، ولكن هؤلاء المشايخ لا يزالون يربطون هذه الأنباء بمجيء المهدي المنتظر، وهكذا يلبسون على الناس الأنباء المتعلقة به وحده.

والطريق الثاني للمكر الذي لجأ إليه اليهود ضد النبي ﷺ أنهم كانوا يخفون بعض الأنباء عن أعين العوام، ويعرضون عن ذكرها في وعظهم الديني، وإذا نبههم المسلمون إليها أنكروها إنكارا تاما، وإذا اضطرهم عالم مطلع تملصوا واختلقوا الأعذار.

وقوله تعالى: (وأنتم تعلمون) أي أنكم لا تفعلون ما تفعلون من لبس الحق بالباطل وكتمانه مصادفة أو سهوا، بل تفعلونه متعمدين عالمين به. ومن يرتكب مثل هذا الإثم متعمدا لن يكون ممن يرثون فضل الله تعالى.

وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱرْكَعُوا۟ مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ ﴿٤٤﴾

شرح الكلمات:

الزكاة: زكا الشيء: نما. زكا الرجل: صلح وتنعَّم وكان في خصب. زكت الأرض: اخضرت. زكّاه الله: أنماه؛ طهّره. زكّى فلان مالَه: أدّى عنه زكاة. زكّى نفسه: مدَحها. وتَزكّى: تَصدَّقَ. والزكاة: صفوة الشيء؛ طاعة الله؛ ما أخرجتَه من مالك لتطهره به. وقيل سُميت الصدقة بالزكاة لأنها تزيد في المال الذي تُخرَج منه وتوفره وتقيه من الآفات (الأقرب).

اركعوا: ركع المصلي ركعا وركوعا: طأطأ رأسه. ركع إلى الله: اطمأن إليه. ركع الرجل: انحطت حالته وافتقر. وركع المصلي في الصلاة: خفض رأسه بعد قومة القراءة حتى تنال راحتاه ركبتيه، أو حتى يطمئن ظهره. والراكع: كل شيء يخفض رأسه (الأقرب). الركوع: الانحناء، فتارة يستخدم للهيئة المخصوصة للصلاة، وتارة في التواضع والتذلل إما في العبادة وإما في غيرها (المفردات). كل شيء ينكب لوجهه فتمس ركبته الأرض أو لا تمسها بعد أن يخفض رأسه فهو راكع. قال ثعلبة: الركوع الخضوع. وكانت العرب في الجاهلية تسمي الحنيف راكعا إذا لم يعبد الأوثان، ويقولون: ركع إلى الله (التاج). فمعنى اركعوا: تواضعوا؛ اعبدوا الله خالصا.

التفسير: في الآيات السابقة أمر الله تعالى بني إسرائيل بإصلاح إيمانهم، والآن يوجههم إلى إصلاح أعمالهم قائلا: لا مناص لكم من تصديق محمد رسول الله ﷺ لتكميل إيمانكم.. وكذلك لا بدّ لكم من إصلاح أعمالكم بتصديقه. لا شك أنكم تؤدون العبادة بطريقتكم ولكنها الآن غير مقبولة، وإذا اتبعتم محمدا في أسلوب عبادته لله تعالى قُبلت العبادة منكم. وإنكم لتؤدون تضحيات مالية قومية ولكنكم لن

تحظوا برضى الله تعالى ما لم تؤدّوا الزكاة بحسب شريعة محمد ﷺ. وإن عبادتكم وأعمالكم قد تتنزه عن الشرك إلى حد ما، ولكن معيار التوحيد قد تغير، فلن ترثوا اليوم أفضال الله تعالى ما لم تصلوا إلى مستوى التوحيد الذي أقامه عن طريق محمد رسول الله ﷺ.

قوله تعالى ﴿وآتوا الزكاة﴾.. الزكاة إخراج نسبة محددة من الأموال في سبيل الله. وسوف نبحث مسألة الزكاة فيما بعد، وكذلك راجع تفسير الآية رقم ٤ من هذه السورة عند شرح قوله تعالى: ﴿ومما رزقناهم ينفقون﴾ حيث ورد ذكر الواجبات المالية على المسلم.

قوله تعالى: ﴿واركعوا مع الراكعين﴾.. ذكرنا في شرح الكلمات أن الركوع هو الهيئة المعروفة في الصلاة، وكذلك يعني الركوع أن يعيش المرء عيشة منزهة عن الشرك؛ لأن الراكع عند العرب من آمن بالله و لم يعبد الأوثان. قال النابغة الذبياني في هذا المعنى:

سيبلغ عذرا أو نجاحا من امرئ إلى ربـــه رب البركة راكعُ

فلا يعني الركوع هنا ركوع الصلاة لأنها لا تقتصر على الركوع وحده، بل فيها غير ذلك من الحركات والهيئات، ومن ثم فليس هناك داعٍ لذكر الركوع خاصة. ثم إن قوله تعالى: ﴿وأقيموا الصلاة﴾ قد تناول موضوع الصلاة بصفة عامة، وكذلك صلاة الجماعة التي تتضمن كل حركات الصلاة وهيئاتها من قيام سجود وركوع وتلاوة وغيرها، فلم يكن هناك حاجة لتخصيص الركوع بالذكر بعد ذكر الصلاة الشاملة.

فالمعنى أن الله تعالى أمر بني إسرائيل أولا بإقامة الصلاة مع المسلمين وأداء الزكاة مثلهم، ثم أمرهم ثانيا بأن يخلصوا أعمالهم لله وحده كما يفعل المسلمون وينتهجوا التوحيد الكامل، وينزهوا أعمالهم من شوائب الشرك؛ وعندئذ سيرثون النعم التي وُعدوا بها في الوعد الإبراهيمي.

ولقد دعت الحاجة إلى هذا الشرح كي لا ينخدع أحد ويظن أن اليهود يغنيهم اليوم العمل بأحكام التوراة، فليكن واضحا للجميع أن العمل الصالح هو ما جاء في الشريعة الإسلامية، ولا يُقبل إلا إذا أداه الإنسان بالطريقة الإسلامية.

أَتَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ وَأَنتُمْ تَتْلُونَ ٱلْكِتَٰبَ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ

﴿٤٥﴾

شرح الكلمات:

البرّ: الصلة أي الإنعام والعطية والإحسان؛ الطاعة؛ الصدق (الأقرب). وأصل معنى البر السعة ثم شاع في الشفقة والإحسان والصلة. قال الإمام أبو منصور اللغوي: البر خير الدنيا والآخرة. والبر أيضًا الصلاح؛ الخير؛ الاتساع في الإحسان إلى الناس (التاج).

تنسون: نسي الشيء نسيًا: ضدُّ حفِظه. قال الراغب: النسيان ترك الإنسان ضبطَ ما استُودِعَ إما لضعف قلب وإما عن غفلة وإما عن قصد حتى ينحذف عن القلب ذكره (الأقرب). وفسره أكثر أهل اللغة بالترك، وقال ثعلب في قوله تعالى: ﴿نسوا الله فنسيهم﴾: لا ينسى الله عز وجل، إنما معناها تركوا الله فتركهم. وإذا نسب ذلك إلى الله فهو تركه إياهم استهانة ومجازاة لما تركوا (التاج). وقوله تعالى: ﴿ولا تنسوا الفضل بينكم﴾ أي لا تقصدوا الترك والإهمال (الأقرب).

فمعنى ﴿تنسون﴾ أنكم تهملون؛ تغفلون؛ تتركون.

أنفسكم: الأنفس جمع نفس، والنفس: الروح؛ الجسم؛ ويراد بها الشخص والإنسان بجملته؛ العظمة؛ العزة؛ الهمة؛ الإرادة؛ الرأي (الأقرب).

تتلون: تلا الكلام تلاوة: قرأه (الأقرب).

تعقلون: عقل الدواء البطن: أمسكه. عقل الغلامُ: أدرك. عقل الشيءَ: فهمه وتدبره. عقل البعيرَ: ثنى وظيفه مع ذراع فشدهما معا بحبل. عقل الوعْلُ عقلا: صعد وامتنع في الجبل العالي. والعقل نور روحاني به تدرك النفس العلوم الضرورية والنظرية (الأقرب). فمعنى ﴿أفلا تعقلون﴾: ألا تستخدمون العقل؛ ألا تمتنعون عن الأنشطة المشينة..

التفسير: بينا في شرح الكلمات.. أن البر هو أعلى درجات الإحسان والخير.. وتُنبِّه الآية بني إسرائيل أنهم بحسب تعاليم كتبهم كانوا يأمرون الناس كثيرا بفعل الخير والإحسان إلى الناس والآخرين، ولكنهم رفضوا الدخول في طاعة النبي العظيم خشية أن يضيع منهم الجاه الدنيوي، وتقول لهم: إذا كنتم تأمرون الناس بالخير فلا تنسوا أنفسكم؛ فحقُّها عليكم أعظم.

ومن معاني النسيان الترك، وفي ضوء هذا المعنى تقول الآية: أتأمرون الناس بالخيرات وتتركون أنفسكم؟ فلماذا لا تحضّونها على البر حتى لا يتعارض عملكم مع قولكم؟

قوله تعالى: ﴿وأنتم تتلون الكتاب﴾. لا يعني هذا أن كتابهم خال من التحريف والتبديل، كما يستنتج بعض الجهال.. وإنما قيل الكتاب بمناسبة الموضوع السابق.. أي أنكم تقرءون كتابكم على الأقل، وهو لا يأمر أبدا أن تنصحوا الآخرين بالخير وتسيروا أنتم في طريق الشر. وإذا كنتم تصدقون كتابكم

وتؤمنون به وهو لا يجيز هذا الأسلوب.. فلماذا سلكتموه؟ عليكم أن تُضحّوا في سبيل الحق كما تأمرون غيركم بالتضحية، ولا تهلكوا أنفسكم بسلوككم هذا.

قوله تعالى: ﴿أفلا تعقلون﴾.. أي أفلا تمتنعون؟ إذا كانت كتبكم لا تعلمكم أن تسيروا في طريق البر.. لأمكن التماس العذر لكم، ولكن انحرافكم عن طريق الخير برغم وجود هذا التعليم في كتبكم لأمر مؤسف جدا. فإذا كنتم لا تنصاعون لنصيحة أحد فعلى الأقل اتبعوا تعاليم كتابكم واسلكوا سبل الخير والتقوى.

وَٱسۡتَعِينُواْ بِٱلصَّبۡرِ وَٱلصَّلَوٰةِۚ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى ٱلۡخَٰشِعِينَ ﴿٤٦﴾

شرح الكلمات:

الصبر: تركُ الشكوى من ألم البلوى لغير الله لا إلى الله. فإذا دعا اللهَ العبدُ في كشف الضرّ عنه لا يُقدَح في صبره. وقال في "الكليات": الصبر في المصيبة. وصبر الرجل على الأمر: نقيضُ جزِع أي جرُؤ وشجُع وتجلَّدَ. وصبَر عن الشيء: أمسكَ عنه. صبَر الدابّةَ: حبسها بلا علف. صبَرتُ نفسي على كذا: حبستُها. وتقول: صبرتُ على ما أكره، وصبرتُ عمّا أحبّ (الأقرب). فمعنى الصبر، أولا: الامتناع عن الآثام والثبات على الحسنات، وثانيا: عدم الجزع عند المصيبة في سبيل الله.

الخاشعين: جمع خاشع.. خشع: ذلَّ وتطَأْمَن. خشع ببصره: غضه. والخشوع في الصوت والبصر كالخضوع في البدن (الأقرب). والخشوع: الضراعة، وأكثر ما يستعمل الخشوع في ما يوجد على الجوارح، والضراعة أكثر ما تستعمل فيما يوجد في القلب (المفردات).

التفسير: هناك مانعان لقبول الصدق: الأول ضغط الحكومات أو القوم والأقارب والأصدقاء الذين بسبب عدم فهمهم للحق أو تعصبهم لمصالحهم الشخصية لا يقبلون الحق ويصدّون الآخرين عن قبوله؛ والثاني: صدأ العادات المتأصلة وران المعاصي السابقة الذي يميت القلب ويسلب الهمة. وتشير هذه الآية إلى السببين كليهما، وتقول: يا بني إسرائيل إذا كان الحق قد حصحص لكم فلا تتأخروا عن قبوله، سوف تتعرضون لضغوط من أقربائكم وأصدقائكم، وتواجهون الظلم والاضطهاد.. ولكن لا تحفلوا بكل هذا، وقاوموه بعادة الصبر الطيبة. كما عليكم أن تدعو الله تعالى لتطهير قلوبكم ليزول عنها الصدأ فتتهيأ لقبول الحق.

وتبين هذه الآية نكتة أخرى من علم النفس ألا وهي أنه لا بد لصلاح أي شيء من أمرين: الأول أن يُصان من التأثيرات الخارجية؛ والثاني: أن تُزاد قوته الداخلية. وباستخدام كلمة الصبر تشير الآية إلى

ضرورة مقاومة التأثيرات الخارجية، وباستخدام كلمة الصلاة تشير إلى ضرورة جذب الفضل الإلهي بالدعاء.. فذلك يسد أبواب النقص ويفتح أبواب القوة ويُفلح الإنسان. وكما بيَّنا في شرح المفردات فإن الصبر لا يعني ترك الجزع فقط، بل يعني أيضًا الامتناعَ عن التأثر بالأفكار السيئة ومقاومَتَها. فعندما يرفض أحد التأثير السيئ ويستجيب للمؤثرات الحسنة بمعونة الدعاء.. تتولد في قلبه روحانية تسهِّل له ما كان يبدو له صعبا من قبل، فيحقق الانتصار في معركة الرقيّ الروحانيّ.

وفي قوله تعالى ﴿وإنها لكبيرة إلا على الخاشعين﴾ وردت كلمة "كبيرة" صفة لمحذوف والتقدير إنها لمهمة كبيرة أي صعبة. والخاشع هو الخائف، وحيثما وردت هذه الكلمة في القرآن الكريم كانت بمعنى الخائف مما يكون الخوف منه مناسبًا ولائقًا. فقد وردت في كل مرة إما بمعنى الخوف من الله تعالى أو من عذابه.

يمكن أن يقول قائل بأن وصف مثل هذا العلاج يسير، ولكن العمل به صعب. فردت الآية قائلة: إنها لكبيرة إلا على الخاشعين. نعم، إن العمل بمثل هذه الوصفة أمر شاق، ولكن مَن كان من الخاشعين وَجَدَه سهلا. وكأن العلاج الحقيقي للتقصير والمعاصي هو الإيمان الكامل بالله تعالى، وبدونه لا يُصان منها أحد مهما اتخذ من الوسائل. لقد اختبرتْ الدنيا هذا مرارا، ولكنها للأسف تَنسى ذلك في كل مرة. إن الخير الحقيقي الكامل لا يتولد أبدا في الإنسان إلا باليقين الكامل بالله تعالى. إن الدلائل الفلسفية لا تستطيع خلق التقوى الصادقة في الإنسان، وإن خوف المعاصي الذي يتولد في القلب بالإيمان الكامل بالله تعالى لا يمكن أن يتولد بأي طريق آخر. ومن أجل ذلك.. فإن الأمثلة التي قدمتها جماعات الأنبياء من الخيرات والتضحيات لا يمكن أن تقدم نظيرها أيةُ جماعة في الدنيا.

إن ما وُعظ به بنو إسرائيل في هذه الآية من الحب والنصح لدليل بيّن على تلك الروح السامية التي يريد الإسلام غرسها في العالم. فكل لفظ من الآية يقطر نصحا ويشع صدقا بما يدل على صدق ناصحهم لإنقاذهم من الخطأ. يقول بعض الحمقى إن هذا القرآن الكريم كلام محمد ﷺ كان يريد به أن ينال القبول لدى اليهود. ولكن تدبروا كلمات هذه الآية.. فهل هي لطالب صيت وقبول؟ ثم فكَّروا في عدم إيمان بني إسرائيل به رغم نصحه هذا. فمن كان المتضرّر؟ هل تضرر الإسلام؟ كلا. فعند تقديم هذه النصيحة لبني إسرائيل لم يكن قد آمن بمحمد رسول الله ﷺ إلا بضعة آلاف، لكن اليوم ينطق بشهادة صدقه أكثر من أربعمائة مليون من البشر، وحكم المسلون الدنيا لألف عام، واليوم أيضًا يهيئ الله الوسائل لازدهارهم مرة أخرى. ولو آمن بنو إسرائيل ما زادوا على ذلك شيئا يذكر، ولو كانت ثمة مصلحة لكانت مصلحتهم هم. لقد تنصر منهم مئات الآلاف، فماذا كانت النتيجة؟ أخرجوا من بلادهم، ونهبت ممتلكاتهم، ولم يكونوا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء. ولو أنهم أسلموا لدخلوا في زمرة مئات

الملايين من المسلمين شركاء على قدم المساواة في كل البركات، ولم يصبهم أحد بأذى باعتبارهم من الأجانب. فزعم الكتّاب النصارى رغم كل هذه الحقائق بأن محمدا ﷺ كان يغري بني إسرائيل لضمهم إلى صفه.. لافتراءٌ يخالف العقل والواقع. وكل ما في الأمر أن القرآن قدَّم لبني إسرائيل النصح لمحض منفعتهم، ولكنهم لم يقبلوه، فلا يزالون يتحملون تبعات ذلك.

﴿ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَٰقُواْ رَبِّهِمۡ وَأَنَّهُمۡ إِلَيۡهِ رَٰجِعُونَ ٤٧﴾

شرح الكلمات:

يظنون: ظنّ الشيءَ: عَلمه واستيقنه. والظن هو الاعتقاد الراجح مع احتمال النقيض، ويستعمل في اليقين والشك (الأقرب). وقد استُعمل الظن هنا بمعنى اليقين.

التفسير: من الأسلوب القرآني أنه عندما يستخدم كلمة ما لمعنى خاص فإنه يُتبعها بشرح لهذا المعنى. فهنا يوضح المعنى الاصطلاحي لكلمة "خاشعين" الواردة في الآية السابقة، فبين أنها لا تعني مجرد الخائفين، وإنما تعني الذين يتولد في قلوبهم خشية الله تعالى نتيجة يقينهم الكامل بوجوده ولقائه، ولا يتأسس شعورهم هذا على مخافة الأذى.. وإنما الخشية من فوات الترقيات الروحية العليا. وهذا الخوف ليس من قبيل خوف الجبان، وإنما هو قلق العارف بالله.. وتجده في أشجع الشجعان، بل يجب أن يوجد فيه. فقيل لليهود في الآية السابقة إن طرد خوف مصائب الدنيا عملية صعبة بلا شك، ولكنها سهلة على الخاشعين، أي الخائفين من الحرمان من الترقيات الروحانية.

و لا يستقيم المعنى إذا أخذنا كلمة "الخاشعين" بمعنى الخوف العادي، بل يصير معنى الآية عجيبا هكذا: لا تخافوا الناس، وإن كان تجنب الخوف أمرا صعبا إلا أنه سهل على الخائفين! إذًا فالخشوع يعني هنا خوف الإنسان من أن يُحرم القرب من ذلك الوجود الكامل الذي يؤمن به.

والمراد من الآية: لا تخافوا المصاعب والمشاكل الدنيوية. إن تجنب هذا الخوف صعب بلا شك، ولكن الذين ينصبون لهم هدفا ساميا بحيث يشق عليهم ترك هذا الهدف لا يعود تحمُّل المشاق صعبا عليهم. والخوف من فوات المرام يُعَدّ في الحقيقة شجاعة وحذرا وليس جبنا.

قوله تعالى ﴿وأنهم إليه راجعون﴾.. الإسلام هو الدين الوحيد الذي يؤكد الحياة بعد الموت حق التأكيد، وليس هناك دين غير الإسلام يتخذ من الحياة الأخروية أساسا لبناء التقوى في الدنيا. إنه يعتبر الحياة الدنيا حلقةً من حلقات حياة طويلة يكتمل خلالها رقي الروح الإنسانية، ولا يعتبر الموت نهاية لصراع الروح، بل يرى أنها ستمضي بعده في كفاح مستمر. والفرق بين الحياتين أن الإنسان يكافح في

الأولى وهو في ظلام نسبي، ولكن في الآخرة ينال الصالح والطالح بصيرة يسعون بها للرقي. الأشرار سوف يكافحون للتخلص مما هم فيه من شدة وبلاء قدمته أيديهم، وأما الأبرار فيسعون للمزيد من الرقي. هذا هو اليقين الذي جعل المسلمين الصادقين لا يخافون الموت أبدا، وكلما يهُبّ المسلمون بهذا الإيمان واليقين يُكتب لهم النصر على العالم. أما الذين يعتبرون هذه الحياة الدنيا نهاية رُقيّهم فلا يمكن أن يجتهدوا لفعل الخيرات بمثل اجتهاد المؤمنين بالحياة بعد الموت، وإنما يميلون دائما نحو ملذات الدنيا، ولا يصرفون أنظارهم عن المتع المادية، ولا يمكن أن يضحوا براحة أبدانهم.

يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتِيَ ٱلَّتِيٓ أَنۡعَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ وَأَنِّي فَضَّلۡتُكُمۡ عَلَى ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿٤٨﴾

شرح الكلمات:

فضَّلتكم: فضَّله على غيره: جعل له مزية عليه وحكم له بالفضل. وفضّله: صيّره أفضل منه (الأقرب).

العالمين: راجع معنى الكلمة في شرح الكلمات سورة الفاتحة.

التفسير: في هذه الآية اختار الله تعالى أسلوبا آخر لترغيب بني إسرائيل في الإيمان بالشريعة الأخيرة. ففي الآيات السابقة وجّه أنظارهم إلى أن الله قد وعدكم وعدا وأنه وفّى بما عليه من عهد، ولكنكم لم تؤدّوا ما في ذمتكم من العهد، فحُرمتم من فضله، وها قد نزل مرة أخرى وحي جديد بحسب أنباء كتبكم، فآمنوا به، ولو آمنتم به لاستأنف الله إنزال نِعَمه عليكم. وأما في هذه الآية فينبههم إلى أن حبَّ المحسن دأْبُ الشرفاء. ولقد أحسن الله إليكم كثيرا إذ رفعكم من الحضيض إلى درجات عليا حتى جعلكم من أفضل الأمم، فلماذا لا تقدِّرون صنيعه حق قدره، وترفضون رسالته؟ اشكروا هذا الإحسان ولا تعرضوا عمن أحسن إليكم.

وقوله تعالى: ﴿إني فضلتكم على العالمين﴾ لا يعني أن الله تعالى فضَّلَهم على الأولين والآخرين من الأمم جميعا، وإنما المراد أنه فضّلهم على من كان في زمنهم من الأمم. فالقرآن يصف أمة الإسلام التي أسَّسها محمد رسول الله ﷺ بأنها خير الأمم، فقال: ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾(آل عمران: ١١١). وقال: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطاً﴾(البقرة: ١٤٤).

يتعيّن معنى ﴿العالمين﴾ من قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى آدَمَ وَنُوحًا وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ (آل عمران:٣٤). فالمراد منه المعاصرون لكل واحد من هؤلاء، لأن الأنبياء والأمم المذكورين في هذه الآية عاشوا في أزمنة مختلفة، ولا يصح القول إن كل واحد منهم كان أفضل من أهل الأزمنة كلها.

وهناك آية أخرى تلقي مزيدا من الضوء على معنى كلمة "العالمين". عندما استضاف سيدنا لوط عليه السلام بعض الناس في بيته، جاءه قومه وقالوا: ﴿ أَوَلَمْ نَنْهَكَ عَنِ الْعَالَمِينَ﴾ (الحجر:٧١).. أي ألم نمنعك من إحضار الأجانب من الجيران إلى القرية؟ فمعنى العالمين هنا: الأغراب أو الأجانب من حول المنطقة.

إذن فحيثما جاء في القرآن كلمة ﴿العالمين﴾ فلم ترد بالضرورة بمعناها الواسع؛ بل يمكن أن تعني الجيران أو المعاصرين. وهذان المعنيان هما مراد آيتنا هذه.

و لم يقل الله تعالى: ﴿فضلتكم على الناس﴾ ليشير إلى أن فضلهم كان على أنواع. وسبق أن ذكرنا معاني لفظ ﴿العالَمين﴾ عند شرح الكلمات لسورة الفاتحة، وبيّنا أن معناه أيضًا طائفة أو نوع من الناس ينهضون دليلا على وجود الله تعالى. فكلمة ﴿العالَمين﴾ تشير إلى طوائف ذات خواص متنوعة، ومعنى الآية: إننا فضلناكم على البارعين في كل العلوم والمجالات.. روحانية وشرعية وأخلاقية وغيرها، وخلقنا فيكم أصحاب كمال في كل مجال، ففاقوا نظائرهم في عصرهم أو فيمن حولهم من الأمم.

وَٱتَّقُواْ يَوۡمٗا لَّا تَجۡزِي نَفۡسٌ عَن نَّفۡسٖ شَيۡـٔٗا وَلَا يُقۡبَلُ مِنۡهَا شَفَٰعَةٞ وَلَا يُؤۡخَذُ مِنۡهَا عَدۡلٞ وَلَا هُمۡ يُنصَرُونَ ﴿٤٩﴾

شرح الكلمات:

لا تجزي: الجزاء: المكافأة على الشيء. جزى الشيءُ: كفى (المحيط). جزيت فلانا حقَّه: قضيتُه.. وتأتي جزى بمعنى أغنى (اللسان).

فمعنى "لا تجزي نفس": ١- لا تقوم نفس مقام أخرى؛ ٢- لا يستطيع أحد تأدية واجبات غيره.

شفاعة: شفع شفاعة وشفعًا. والشفع ضمّ الشيء إلى مثله. والشفاعة الانضمام إلى آخر ناصرا له أو سائلا عنه، وأكثر ما يستعمل في انضمام مَن هو أعلى حُرمةً ومرتبة إلى من هو أدنى (المفردات). وشفع الصلاةَ أو العدد: صيّره شفعا أي زوجا.. أي أضاف إلى الواحد ثانيا وإلى الركعة أخرى. يقال: كان وترا فشفعوه بآخر أي قرنوه به. وشفع لي الأشخاصُ.. أي أرى الشخص شخصين لِضُعف بصري.

وشفع له أو فيه إلى فلان شفاعة: طلب أن يعاونه. وشفع لفلان في المطلب: سعى. وشفع لي بالعداوة: أعان عليّ. والشفاعة: السؤال في التجاوز عن الذنوب من الذي وقعت الجناية في حقه. وقيل: لا تستعمل إلا بضمّ الناجي إلى نفسه مَن خاف مِن سطوة الغير (الأقرب).

عدل: العدل ضدُ الجَوْر؛ المِثل؛ النظير؛ الجزاء؛ الفداء؛ النافلة (الأقرب).

التفسير: الآية دَحْضٌ لمعتقدات عند بني إسرائيل كانت تشجعهم على المعاصي، وتحرمهم الحسنات. كانت طوائف من بني إسرائيل تظن: أن أحدا ممن سواهم سوف يتحمل عبء ذنوبهم أولا، وأنه سوف يشفع لهم الأبرار منهم وينقذونهم ثانيًا، وثالثًا أن فيهم بعض الحسنات التي تزيد على ذنوبهم في كل حال، وأنّ منها سيسدّدون فدية لذنوبهم ويستحقون الجنة. وتدحض الآية هذه الأفكار وتخبرهم بالمفهوم الحقيقي للحسنات كيلا يهلكوا أنفسهم بإنكار الحقائق.

ولفهم هذه الآية يجب أن نعرف أن الفطرة الإنسانية جُبلت على حب نيل المراتب الروحانية العليا. هذا الإحساس تجاه الكمال موجود بشكل أو آخر حتى في القبائل البدائية غير المتحضرة.. سواء كانوا من الزنوج الأفارقة أو الهنود الحمر المكسيك أو سكان أستراليا الأصليين. ويوجد هذا الإحساس في بعضهم بصورة معينة وفي بعضهم بصورة مبهمة. وقد أشار القرآن إلى هذا الإحساس بأسلوب لطيف جدا حيث قال: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى شَهِدْنَا أَنْ تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ * أَوْ تَقُولُوا إِنَّمَا أَشْرَكَ آبَاؤُنَا مِنْ قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِنْ بَعْدِهِمْ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ الْمُبْطِلُونَ﴾ (الأعراف:١٧٣ و١٧٤).

تتضمن هذه الآية استعارة لطيفة بأن كل إنسان يخرج من ظهر آبائه، أي يولد، حاملا أثر التوحيد، ثم بعد ذلك يصبغه أبواه بصبغة الشرك. فلو لم يترك الله أثر التوحيد هذا في الفطرة الإنسانية لكان له عذر في الوقوع في الشرك. ولكن الله تعالى أقام الحجة على كل إنسان بأن غرس في فطرته الاعتراف بالتوحيد قبل مولده، فلا يستطيع الاعتذار بالجهل، أو بتأثير آبائه. هذا الأثر الفطري نجده في كل قوم وفي كل قبيلة، ومنذ الأزل يحاول الإنسان أن ينال القرب من خالقه، مما يدل على أن هذه الرغبة وديعة في فطرته، و لم تأت من خارجه.

ولكننا مع ذلك نرى أن الإنسان -كسلا منه أو غفلة- يلتمس طرقا سهلة لنيل هذا المرام. أما المتأثرون بالفلسفة فيختارون طريقا لهم بهذا المنطق: بما أن الله تعالى قد خلقنا في خضم هذه الظروف الدنيوية فلا يتوقع منا إلا أن نعيش مواطنين طيبين؛ ولو حققنا هذا الغرض فقط لنكونن قد أدينا كل ما ألقى الله علينا من واجبات.

أما غيرهم فيحاولون في زعمهم إجابة النداء الرباني بتضحيات مؤقتة متنوعة.. قد تبدو أحيانا للناس جسيمة، ولكنها في الحقيقة لا تمثل إلا القليل التافه بالقياس إلى التضحية الواجبة. فمثلا يلجأ بعض الناس هربا من الجهد والكفاح، إلى قطع أعضاء أجسادهم.. بدلا من اتباع سبل الخير الدائم، وإصلاح النفس ليل نهار، وسلوك الطريق الوعر من قمع الأهواء.. ويحسبون هذا عملا يغنيهم عن تضحية كاملة غير منقطعة.. فرضها الله على الناس لنيل طهارة حقيقية. وبعضهم، عجزا منهم عن كبح ميولهم الشهوانية، يقطعون العضو المثير لها. وبعضهم لضعف عزيمتهم عن الامتناع عن الغيبة والنميمة والكذب وفحش القول، يقطعون ألسنتهم. وبعضهم بسبب عدم قدرتهم على ذكر الله تعالى في مشاغل محيطهم يفرون إلى الغابات والجبال. وبين الهندوس من يعيشون عراة ظانين أنهم يضحون براحتهم في سبيل الله، وأحيانا يعلقون أنفسهم في وضع مقلوب أداء لحق الله عليهم!

كل هذه الطرق ليست إلا بمثابة الفرار من الواجبات الحقيقية المجدية. فلو أن الله تعالى جعل تكميل الإنسان متوقفا على هذه الأعمال فما الداعي من خلق إنسان ذي فطرة مدنية؟ لو كانت الرهبانية أي الامتناع عن الزواج، طريقا حقيقيًّا للخير لكان معنى ذلك أن سبيل كمال الإنسانية هو في إفنائها. وهذا باطل بالبداهة. إذا كانت الرهبانية ذريعة كمال الحياة الإنسانية لوجب أن يكون كل الناس متبتلين ليصبحوا من الكاملين. ولو تبتلوا جميعا لقُضِي على الإنسانية في جيل واحد.

يقول البعض: الرهبانية ليست وسيلة للكمال وإنما الكُمَّل هم الذين يترهبون. ولكنها أيضًا فكرة باطلة بالبداهة.. لأن ذلك يعني انقطاع نسل الكُمَّل واستمرار نسل الناقصين. ومع أنهم ينتخبون الحيوان الكامل الأصيل من بين الخيل والماشية والجمال وغيرها لإنتاج نسلها وتكاثرها. وكذلك يفعلون في إكثار نباتات الفاكهة والزهور والمحاصيل والخضراوات وغيرها للحصول على إنتاج جيد. فلماذا نتبع هذا الأسلوب في إنتاج النبات الجيد والحيوان الجيد وندع السلالة الناقصة من البشر لتنتج الذراري الضعيفة ونهمل السلالة الجيدة متبتلة دون إنتاج؟ لن يقبل هذه الفكرة إنسان عاقل.

كان بعض الأقوام يقدمون أولادهم قرابين لله استرضاء له أو تجنبًا لغضبه.. وتوجد أمثلة لذلك في كل البلاد تقريبا. وللقضاء على هذه العادة أمر الله تعالى سيدنا إبراهيم عليه السلام في الرؤيا بالتضحية بابنه، ذلك لتعرف الدنيا قوة إيمانه وليمحو الله هذه العادة محوا أبديا. وفي بعض الأمم كانوا يقبضون على المجرمين أو الأجانب ويقدمونهم قرابين لله. كل هذه الأفكار غير طبيعية ولا معقولة، تولدت نتيجة عدم إدراك صفات الله من جهة، ولعدم فهم صفاء الفطرة الإنسانية من جهة أخرى. ولو أنهم أعملوا عقلهم لعرفوا أن هذا الطريق ليس طريقًا لتكميل الروحانية، وإنما سبيل ذلك هو الحذر الدائم من الأهواء السيئة، وجهاد النفس دائما، والتوجه المستمر إلى الله تعالى للاستعانة به في ذلك.

لقد انتشرت هذه الأفكار الخاطئة في أقوام لم يكن لديهم علم تفصيلي عن الدين. ومن جهة أخرى اخترع أهل الديانات هذه الطرق كلها تسكينا لضمائرهم وفرارا من الجهاد الحقيقي نحو الكمال الروحاني. ولا أعني بقولي هذا أن الأمم التي ليس لديها شريعة كاملة تخلو من هذه الأفكار، بل إنها أيضًا تخفي خواطر نفوسها في ستار هذه الأفكار؛ ولكن أتباع الديانات التفصيلية يولون لها أهمية أكثر بدلا من الجهاد الحقيقي للنفس.

والخطاب في الآية مُوَجّه أصلا إلى بني إسرائيل الذين كانوا منقسمين إلى طائفتين: اليهود والنصارى. وقد تقوَّت هذه الأفكار بينهم في زمن الانحطاط عندما اندرس فيهم مفهوم الخير الحقيقي. فبدلا من الحذر والتنبه الدائم إلى دسائس الشيطان والسعي الدءوب للتقرب إلى الله تعالى مدفوعين بحبه ليل نهار.. ظنوا أنهم لو صرفوا النظر عن الشريعة والمنهج السماوي فلا ضرر في ذلك.. فهم سينالون النجاة على أي حال إما بكفارة قدمها أسلافهم حسب زعمهم، أو بفضل شفاعتهم لهم، أو إكراما لنسبهم العريق، أو بسبب تضحيات مالية يقدمونها في الدنيا.

والآن، أقدم حول هذه الأمور تعليم اليهود والنصارى، لأبين كيف وقعت هذه الأمم في الخطأ وابتعدت عن طريق النجاة الصحيح؛ فأول فكرة خاطئة نشأت بين اليهود والنصارى ولا تزال باقية فيهم، وقد دحضها القرآن الكريم في هذه الآية.. هي أن أحدا آخر سيكون كفارة لخطاياهم فينجون من تبعاتها. وقد نمت هذه الفكرة بين اليهود من القرابين التي كانت مفروضة عليهم بحكم الدين كي تلفت أنظارهم إلى ضرورة التوبة من الذنوب. فعندما ضعفت فيهم روح التقوى بدءوا يظنون أن هذه القرابين هي الكفارة لذنوبهم. يقول موسى عليه السلام: "ويضع هارون يديه على رأس التيس الحي، ويقر عليه بكل ذنب بني إسرائيل وكل سيئاتهم مع كل خطاياهم، ويجعلها على رأس التيس، ويرسله بيد من يلاقيه إلى البرية، ليحمل التيس عليه كل ذنوبهم إلى أرض مقفرة، فيطلق التيس في البرية" (اللاويين ١٦: ٢١-٢٢). وقال أيضًا: "وتيسا واحدا ذبيحة خطية للتكفير عنكم". (عدد٢٨: ٢٢). أي بالإضافة إلى أضاحي أخرى.. قدِّموا تيسا واحدا كفارة لذنوبكم فيمحو كل خطاياكم.

لا شك أن هذه كانت أوامر من موسى عليه السلام، ولكن بالنظر إلى تعاليمه الأخرى لبني إسرائيل لا يصح القول بأن تضحية التيس أو العجل كفارة تمحو خطايا الإنسان. يقول موسى في موضع آخر: "وهذه هي الوصايا والفرائض والأحكام التي أمر الرب إلهكم أن أعلمكم لتعملوها في الأرض التي أنتم عابرون إليها لتتملكوها. لكي تتقي الربَّ إلهك وتحفظ جميع فرائضه ووصاياه أنا أوصيك بها أنت وابنك وابن ابنك كل أيام حياتك، ولكي تطول أيامك". ويضيف قائلا: "اسمع يا إسرائيل، إلهنا رب واحد. فتحب الرب إلهك من كل قلبك ومن كل نفسك ومن كل قوتك. ولتكن هذه الكلمات التي أنا

أوصيك بها اليوم على قلبك، وقُصَّها على أولادك، وتكلم بها حين تجلس في بيتك وحين تمشي في الطريق وحين تنام وحين تقوم. واربطها علامة على يدك. ولتكن عصائب بين عينيك، واكتبها على قوائم أبواب بيتك، وعلى أبوابك". ويقول أيضًا: "واعمل الصالح والحسن في عيني الرب لكي يكون لك خير" (تثنية: ٦).

تبين هذه التعاليم أن موسى عليه السلام كان يؤكد بشدة على تطهير القلب وفعل الخيرات والتمسك بالتوحيد والعمل بأحكام الشريعة لدرجة أنه كان يوصي بنشرها باللسان والكتابة وتلقينها للآخرين.. حتى يقول: احتفظوا بها بالكتابة على الجدران والأبواب. هل يتصور أحد للحظة واحدة بعد كل هذه التعاليم أن موسى يعتقد بأن تضحية تيس واحد تمحو كل خطايا قومه جميعا؟! إذا كان محو الذنوب بهذه السهولة فما الحاجة للحض على الشريعة بهذه القوة والحماس، بل ما الحاجة أصلا لإنزال الشريعة على الناس؟

يدحض القرآن الكريم هذه الفكرة الباطلة عند اليهود، ويحذرهم بأنهم سيقفون أمام الله تعالى يوما لا تجزي فيه نفسٌ أيِّ أضحيةِ تيْسٍ عن نفس، أي عن يهودي، ولا تغني عنه شيئا.. بل لا تنفعه يومئذ إلا طهارة نفسه. فلم يكن الغرض من تعليم موسى لليهود بتضحية تيس أو غيره إلا أن يكون رمزا للتضحية بأهواء النفس وشهواتها، ولكن اليهود مالوا إلى التراخي والتكاسل وصرفوا النظر عن التعاليم الحقة، واعتبروا هذا التمثيل أصلا وتركوا الأصل، وهو طهارة النفس. الواقع أن الناس في زمن موسى كان مولعين بالمراسم الظاهرية والتمثيلات، لذلك مُثِّل لهم موضوع تضحية النفس برسم ذبح تيس أو حيوان آخر.. لكي يهتم القوم جميعا في يوم معين بأهمية الخلاص من ذنوبهم. ولكنهم نسوا المغزى الحقيقي من التمثيل وتمسكوا بمظهره.

وقد تركزت فكرة الكفارة هذه في طباع بني إسرائيل لدرجة أن الملك البابلي بختنصر عندما هدم الهيكل في أورشليم حيث كانوا يقدمون قرابينهم أصابهم الهلع وظنوا أنه لم تعد لديهم وسيلة لغفران الذنوب.. ووصلت شدة الصدمة بكثير منهم لدرجة أنهم فرّوا من الدنيا وترهّبوا (الموسوعة اليهودية: ج ١). وصرخ يومئذ عالمهم الكبير يوشع بن حنانيا قائلا: "واحسرتاه! كيف تتم الآن كفارة سيئاتنا!" (المرجع السابق).

والصدمة التي أصابت اليهود بهدم الهيكل جعلت أنبياءهم يشرعون في معارضة هذه الأفكار، ويبينون لهم أن ذنوب الإنسان لا يحملها ثور ولا تيس. فقال النبي هوشع: "ارجع يا إسرائيل إلى الرب إلهك لأنك قد تعذّبت بإثمك. خذوا معكم كلاما وارجعوا إلى الرب. قولوا له ارفَعْ كل إثم واقبل حسنا فنقدِّم عُجول شفاهنا" (هوشع ١٤: ١و٢). هنا يوضح هوشع لليهود أن العجل أو التيس لا يكون كفارة

للذنوب وإنما هو التوبة والتسبيح والتحميد التي تنجي الإنسان من تأثير الإثم. ليس العجل ولد البقرة، وإنما العجل المتولد من لسان التائب، هو الذي يمثل كفارة حقيقية.

وقبل هوشع بسنين نبَّهَ النبيُ عاموس إلى خطر الاعتماد على هذه القرابين الظاهرية فقال: "إني إذا قدمتم لي محرقاتكم وتقدماتكم لا أرتضي، وذبائح السلامة من مُسمَّناتكم لا ألتفت إليها. أبْعِدْ عني ضجة أغانيك، ونغمة ربابك لا أسمع. ولْيَجْرِ الحق كالمياه، والبِرُّ كنهر دائم" (عاموس ٥: ٢٢ - ٢٤).

وقال النبي إشعياء: "لا تعودوا تــأتون بتقدمة باطلة. البخور هو مَكْرَهة لي. رأسُ الشهر والسبتُ ونداءُ المحفل. لست أطيق الإثم والاعتكاف. رؤوس شهوركم وأعيادكم بغَضَتْها نفسي، صارت عليَّ ثقلا، مللتُ حملها". وأضاف أيضًا: "اغتسلوا، تنقوا، اعزلوا شر أفعالكم من أمام عيني. كفوا عن فعل الشر، تعلَّموا فعل الخير. اطلبوا الحق. انصفوا المظلوم. اقضوا لليتيم. حاموا عن الأرملة. هلم نتحاجج يقول الرب. إن كانت خطاياكم كالقرمز تبيَضُّ كالثلج. إن كانت حمراء كالدّودي تصير كالصوف" (إشعياء ١: ١٣: ١٤: ١٦إلى ١٨).

ويقول النبي ميخا: "بم أتقدم للرب وأنحني للإله العلي. هل أتقدم بمحرقات، بعجول أبناء سنة؟ هل يُسرّ الربُّ بألوف الكباش؟ بربوات[1] أنهار زيت. هل أُعطي بكري عن معصيتي، ثمرة جسدي عن خطية نفسي. قد أخبرك أيها الإنسان ما هو صالح. وماذا يطلبه منك الرب إلا أن تصنع الحق وتحب الرحمة وتسلك متواضعا مع إلهك". (ميخا ٦: ٦ إلى ٨).

تبين هذه العبارات أنه كان لدى اليهود اعتقاد راسخ بأن القرابين تكفر ذنوبهم، وأن عديدا من أنبيائهم حاولوا صدهم عن هذه العقيدة، وبينوا لهم أن الله تعالى لا يرضى بالأضاحي من التيوس والعجول والبكر من الأبناء، بل هناك طريق واحد للوقاية من عواقب ما ارتكبه الإنسان من السيئات.. ذلك هو أن يتوب باللسان والقلب، ويعود إلى فعل الخير والصلاح مرة أخرى، فيغفر له الله تعالى ما تقدم من ذنبه.

ولكن أثر هذا التعليم لم يبق فيهم طويلا.. حيث تركوا تعظيم القرابين من الحيوانات، ولكن اخترعوا كفارة أخرى.. فقالوا بأن ما تحمله كبار صلحائهم من مشاق وتضحيات يكون كفارة لذنوبهم، وإذا لم يكن في زمن ما مثل هؤلاء الأبرار فإن الله تعالى يكفر عنهم ذنوبهم بإهلاك مواليدهم الأبرار. فقد ورد في كتب اليهود: "الجيل الذي لا يوجد فيه الأبرار والصالحون يذهب الرب منهم بأطفالهم الأبرار" (الموسوعة اليهودية، ج١).

[1] ربوات أنهار زيت تعني آلاف الأنهار. الناشر

وينبه القرآن اليهود بأنه لم تُغْنِهم نفس، سواء أكانت نفسَ تيس من أنعامهم أو نفسَ رجل من صلحائهم، أو نفسَ طفل من أبنائهم، وهذا ما أكد عليه أنبياؤهم من قبل.

وأما الفرع الثاني من بني إسرائيل، وهم النصارى، فتأثروا بنفس الفكرة اليهودية وبنوا عليها عقيدة الكفارة. فهم يعتقدون أن المسيح صار كفّارة لخطيئتهم بموته على الصليب، ويظنون أن تعاليم موسى عليه السلام بذبح تيس قربانا عن ذنوبهم يتضمن في الحقيقة نبأ بمجيء المسيح.. بمعنى أن هذه القرابين توجه أنظارهم نحو كبش للرب، أي المسيح، سيأتي ويموت كفارة لذنوب بني آدم. ودليلهم أن الكبش لا يقدر على حمل ذنوب كل الدنيا، ولكن ابن الله تعالى قادر على حملها! وينفون زعم اليهود بأن صلحاءهم قد تحملوا من المشاق ما يكفر ذنوبهم بقولهم إن أسلافهم كانوا أنفسهم ملوثين بالخطيئة؛ والخاطئ لا يستطيع حمل خطيئة غيره، أما المسيح فكان بلا خطيئة، وبالتالي قادر وحده على حمل خطايا البشر. يقولون لقد صلب المسيح لا لذنب جناه، وإنما لأجل ذنوب الآخرين. إن بني البشر ورثوا الخطيئة من أبيهم آدم، ولما كان المسيح بلا أب فلم يرث شيئا عن آدم وكان بلا خطيئة، وتأهَّل بذلك ليكون كفارة لذنوب البشر.

ولقد أيد بعض المسلمين لجهلهم النصارى في عقيدتهم هذه؛ إذ قالوا: ليس هناك أحد لم يمسه الشيطان إلا المسيح وأمه، وبذلك خطوا خطوة أبعد من النصارى. فهؤلاء يعتبرون المسيح وحده منزها عن الخطية، ولكن المسلمين ضمُّوا إليه أمّه أيضًا. وكأنه لم يوجد نبي سواه لم يمسه الشيطان، نعوذ بالله من هذا القول!

إن النصارى لم ولن يقدموا قولا واحدا للمسيح عليه السلام يقول فيه إنه معصوم من الذنب، أو أن موته على الصليب كفّارة لخطايا الآخرين. فتعاليم المسيح مخالفة لهذا الاعتقاد تماما. وإذا كان هناك قول له بمثل هذا المعنى في أناجيلهم الحالية، فلا اعتبار له.. لأنها مصابة بتحريف شديد.

إنهم يقدمون أقوالا للحوارين في هذا الصدد منها:

١.قول بولس: "إن المسيح مات من أجل خطايانا حسب الكتب " (الرسالة الأولى لأهل كورنثوس ١٥:٣).

٢.وقوله أيضًا: "يسوع نراه مكللا بالمجد والكرامة من أجل ألم الموت لكي يذوق بنعمة الله الموت لأجل كل واحد" (رسالته إلى العبرانيين ٢: ٩).

٣.وأيضًا: "لكي يكون رحيما ورئيسَ كهنةٍ أمينًا في ما لله حتى يكفر خطايا الشعب" (المرجع السابق: ١٧).

٤. وأيضًا "المسيح افتدانا من لعنة الناموس إذ صار لعنة لأجلنا لأنه مكتوب: ملعون كل من عُلِّق على خشبة" (رسالته إلى غلاطية ٣: ١٣).

بهذه الأقوال وغيرها يستنتج المسيحيون أن المسيح كان بلا خطية، ولكنه مات ميتة اللعنة لأنه علق على الخشبة.. فثبت أن موته لم يكن لنفسه بل للآخرين كفارة لخطاياهم.

وكما سبق أن ذكرنا.. أن هذه العقيدة النصرانية تولدت عن نظرية فشت في اليهود زمن انحطاطهم الروحي عندما ظنوا بأن ما يتحمله صلحاؤهم من مشاق وصعاب يكفر ذنوب سائر بني إسرائيل. ولكن عقيدة النصارى هذه مخالفة لما ورد في الإنجيل نفسه: يقول المسيح نفسه: "ومن لا يأخذ صليبه ويتبعني فلا يستحقني" (متى ١٠: ٣٨). ونفس المعنى موجود في الأناجيل الأخرى بكلمات أخرى. فتبيّن مِن هذه العبارة أن المسيح عليه السلام لا يعتبر صلبه ذريعة لنجاة البشر، بل على كل إنسان أن يُصلب على صليب نفسه ليفوز بالنجاة.

وتدحض عقيدةَ الكفار أيضًا أحوالُ موسى الذي كان مؤسس السلسلة الموسوية، والذي ادعى المسيحُ بأنه جاء لتجديد وإقامة تعاليمه. فقد جاء في التوراة أنه عندما ذهب موسى إلى الجبل أربعين ليلة، واتخذ بنو إسرائيل العجل إلها لهم في غيابه.. ثار عليهم غضب الرب وأراد أن يهلكهم قائلا: "رأيت هذا الشعب وإذا هو شعب صلب الرقبة. فالآن اتركني ليحمي غضبي عليهم وأفنيهم. فأصيِّرك شعبا عظيما" (خروج ٣٢: ٩-١٠). ورجع موسى إلى قومه وغضب عليهم لشركهم وقال لهم: "أنتم قد أخطأتم خطيئة عظيمة. فاصعد الآن إلى الرب لعلي أكفِّر خطيتكم". وتحكي التوراة: "فرجع موسى إلى الرب وقال: آه، قد أخطأ هذا الشعب خطية عظيمة، وصنعوا لأنفسهم آلهة من ذهب. والآن إن غفرت خطيّتهم وإلا فامْحُني من كتابك الذي كتبت. فقال الرب لموسى: من أخطأ إلي أمحوه من كتابي" (المرجع السابق: ٣٠ إلى ٣٣).

فلم يقل الله تعالى لموسى: أنت مخطئ لكونك من بني آدم، فكيف لمخطئ أن يصير كفارة للمخطئين الآخرين، ولكنه قال: من أخطأ إليَّ سأمحوه من كتابي. ويوضح هذا الجواب أن الله تعالى لا يعاقب أحدا بدل مذنب آخر، وإنما سنته تعالى ألا يعاقب إلا المذنب. فعلى الرغم من وجود هذا التعليم يقول النصارى إن المسيح صُلب كفارة لذنوب قومه، ويخالفون تعاليم الكتاب المقدس.

ورب قائل يقول إن هذا التعليم التوراتي نسخ زمن المسيح. فالرد على ذلك أن هذه السنة الإلهية حقيقة أزلية، والحقائق الأزلية لا تنسخ. قد تتبدل الأحكام المتعلقة بالناس ولكن سنن الله تعالى لا تتغير ولا تتبدل.

أما الأدلة التي يبني عليها النصارى موضوع الكفارة فهي أيضًا باطلة عقلا ونقلا. فمثلا قولهم إن الإنسان ورث الخطيئة من آدم، فلا يستطيع أن يتخلص منها، أو بعبارة أخرى: إن فطرة الإنسان ملوثة بالخطيئة. هذا الزعم يفنّده القرآن الكريم حين يعلن: "لقد خلقنا الإنسان في أحسن تقويم" (التين:٥).. يقينا، إننا خلقنا الإنسان مزودا بقوى خالية من أي نوع من الاعوجاج. ويقول النبي ﷺ: "كل مولد يولد على الفطرة" (صحيح البخاري، كتاب الجنائز).. فكل إنسان يولد بروح طاعة كاملة.

والعجيب أن النصارى يدَّعون من جهة أن الإنسان لا يستطيع التغلب على الخطيئة الموروثة من جدّه الأكبر آدم، ولذلك دعت الحاجة إلى كائن مولود بلا أب للكفارة عنها.. ولكنهم من جهة أخرى يدعون أيضًا أن الشخصين اللذين لم يرثا الخطيئة، أي آدم وحواء، كلاهما خاطئان. إذا كان الأمر هكذا فكيف نجزم إذن أن من لم يرث الخطيئة يكون بارا غير خاطئ. هذا القول لا يثبت إلا إذا وُجدت أمثلة لأشخاص لم يرثوا الخطية ومع ذلك كانوا أبرارا، ولكن ليس هناك مثل هذه الأمثلة لدى النصارى سوى شخصين اثنين، وكلاهما مذنب "أي آدم وحواء"، أما الشخص الثالث فهو المسيح. فادعاؤهم بأنه لم يرث الخطية لأنه مولود بغير أب تحكُّمٌ ليس إلا.. لأن المولود لا يرث من قوى أبيه فقط، بل أيضًا من قوى أمه. لا ندري من هذا الأحمق الذي وسوس إلى قلب مخترع هذه النظرية أن المولود يرث قوى أبيه فقط. فالمولود يكون أحيانا على صورة أبيه وأحيانا على صورة أمه، وأحيانا يرث من قوى أبيه أكثر من قوى أمه، ويحدث العكس أيضًا، وأحيانا يرث قدرا متقاربا من الجانبين. فكيف يصح استنتاج أن المسيح لم يرث الخطية لأنه بدون أب؟ لقد ولد من بطن السيدة مريم، وورث منها خصائصها. والمرأة وارثة للخطية في عرف النصارى مثل الرجل، بل تقول التوراة إن الشيطان عن طريق حواء أغوى آدم (التكوين ٣ :١ إلى ٧). ومعنى ذلك أن الشيطان وجد المرأة أكثر ميلا نحو الخطية من الرجل.. ولذلك اتخذها ذريعة لإغواء آدم. فالمولود الذي وُلد وارثا ضَعْفَ حواء وحدَها كان أقرب إلى الخطية ممن ولد لأبوين.

أما المسيح فيرى في نفسه غير ما يقول النصارى عنه. فقد ورد في الإنجيل أن شخصا جاءه وناداه: "أيها المعلم الصالح. فقال له المسيح: لماذا تدعونني صالحا؟ ليس أحد صالحا إلا واحد وهو الله". (متى ١٩: ١٦و ١٧). ويتضح من هذا القول أن المسيح عليه السلام لا يعتبر نفسه صالحا. فكيف يسوغ إذن اعتباره الصالحَ الوحيد.. ثم تأسيسُ عقيدة الكفارة على ذلك؟

وأقول هنا بكل أسف: عندما اعترض سيدنا مرزا غلام أحمد مؤسس الجماعة الإسلامية الأحمدية عليه السلام على عقيدة الكفّارة والفداء مستشهدًا بقول المسيح عليه السلام هذا، بادر النصارى إلى تحريف نصِّه في بعض طبعاتهم الجديدة كالأردية مثلا، مع أنه كان بحسب اعتقادهم جزءا من الإنجيل منذ تسعة

عشر قرنا. وكانت حجتهم بعد تحريفهم هذا أن الترجمة السابقة كانت خطأ. قالوا لم يقل المسيح: لماذا تدعوني صالحا، وإنما قال: لماذا تسألني عن الصلاح؟ وللعاقل أن يتساءل: كيف لم ينتبهوا لهذا الخطأ طيلة تسعة عشر قرنا.. وبمجرد أن أشار إليه سيدنا مؤسس الجماعة الإسلامية الأحمدية عرفوه وصححوه ؟

إن هذا تحريف جريء ارتكبوه في زمن مضى على اختراع المطبعة فيه مئات السنين، وصدرت من الأناجيل مئات الطبعات وملايين النسخ بكل اللغات. فالأمة التي تتجاسر على هذا التحريف الخطير بعد اختراع المطابع وانتشارها.. فيمكن أن تتصوّر حجم التحريف الذي أدخلته في كتابها قبل ذلك؟

بَيْد أن ما قلتُه فقد قلتُه استنادا إلى بيان الكتاب المقدس، وإلا فإن الإسلام يعلمنا أن كل مولود يولد بفطرة طيبة نقية، وخاصة رسل الله تعالى كالمسيح أو موسى أو غيرهم عليهم السلام.. كل واحد منهم كان في عصمة الله، و لم يكن للمسيح بهذا الصدد أي خصوصية.

والجدير بالذكر أيضًا أنهم يؤسسون كفارة المسيح على اعتقادهم بأنه اختار الموت على الصليب عن طيب خاطر لحمل خطايا الناس. وقضية موته على الصليب سوف أفصلها في موضعها من القرآن الكريم، إن شاء الله، واكتفي هنا بالقول إنه لا يثبت من الإنجيل أبدا أن وضع المسيح فوق الصليب كان عن رضًا وطيب خاطر منه، ولا أنه مات على الصليب. فقد جاء في الإنجيل: "ثم تقدم قليلا وخر على وجهه وكان يصلي قائلا: يا أبتاه، إن أمكن فلتعبُر عني هذه الكأس. ولكن ليس كما أريد أنا بل كما تريد أنت" (متى ٢٦: ٣٩). فهل يقبل العقل السليم أن الذي أتى من السماء برغبته لحمل خطايا البشر.. يبكي ويخرّ على وجهه ساجدا محاولا الخلاص من هذه المحنة؟

يحتج النصارى ردًّا على هذا التعجب بأن المسيح قال أيضًا: "ولكن ليس كما أريد أنا بل كما تريد أنت".. فنقول: إن قوله هذا يدل على أن إرادة المسيح لم تكن ليصبح كفارة لذنوب الناس، فكيف والحال هذه، صار كفارة لها؟ هل وضع الله تعالى أعباء الناس ظلما على كتفي شخص يأبى ذلك؟ نلحظ شدة كراهية المسيح لعملية الصلب هذه لدرجة أنه عندما عُلِّق على الصليب قال، كما ورد في الإنجيل: "إيلي إيلي لما شبقتني" (متى ٢٧: ٤٦). أي إلهي إلهي لماذا تركتني. تكشف هذه العبارة بوضوح تام أن التأويل الذي يقدمه النصارى لقول المسيح "ولكن ليس كما أريد أنا بل كما تريد أنت" تأويل خاطئ وباطل، لأن الإنجيل يقول بأنه لما تحققت إرادة الله تعالى وعلق المسيح على الصليب.. فإنه بدلا من الاستسلام لما يرضى الله تعالى شَرَع يشتكي إليه تعالى صارخا: لماذا تركتني؟

الخلاصة أن المسيح عليه السلام ما كان يريد أن يُصلب بحال من الأحوال. فالقول بأنه جاء إلى الدنيا ليحمل خطايا الآثمين باطل تماما. لو كان المسيح حقا جاء إلى الدنيا لهذا الغرض لم يحاول قط أن يتخلص مما يحسبه النصارى الوسيلة الوحيدة لتخليص الناس من الخطايا.

أما مسألة موت المسيح على الصليب.. فهناك شهادة للمسيح أبيّنها بإيجاز. جاءه وفد من فقهاء اليهود وطائفة الفريسيين وطلبوا منه أن يريهم آية فقال: "جيل شرير وفاسق يطلب آية ولا تُعطى له إلا آية يونان النبي. لأنه كما كان يونان في بطن الحوت ثلاثة أيام وثلاث ليال هكذا يكون ابن الإنسان في قلب الأرض ثلاثة أيام وثلاث ليال" (متى ١٢: ٣٩ و٤٠). دخل النبي يونس "يونان" عليه السلام في بطن الحوت حيًّا، ومكث في بطنه حيًّا، وخرج من بطنه حيًّا. فثبت أن المسيح أيضًا دخل القبر حيًّا، ومكث فيه حيًّا، فزعم النصارى أنه مات على الصليب باطل، وما دام لم يمت على الصليب بطلت العقيدة القائلة بأنه قَبِل الموت ليحمل خطايا الآخرين. فإما أن يكون المسيح، والعياذ بالله، كاذبا فيما قاله عن هذه الآية، أو نكذب هؤلاء الذين زعموا أنه مات على الصليب، ودخل القبر ميتا، ومكث فيه ميتا.

هناك لطيفة جديرة بالذكر، فعلى الرغم من أن عادة التضحية بإنسان أي أن يقتل الناس أحدا منهم كفارة لذنوبهم كانت قد أُلغيت منذ زمن إبراهيم عليه السلام إلا أن اليهود لم يكونوا قد تحرروا من تأثيرها تماما. فقد ورد في التوراة أن أحد رؤساء بني إسرائيل "يَفْتاح الجلعادي" عندما خرج لقتال بني عمون نذر للرب أنه إذا حقق له النصر فسوف يقدم قربانا له مَن يخرج من أبواب بيته قبل غيره للقائه عند رجوعه سالما من المعركة. وحدث أن ابنته الوحيدة كانت أول من خرج للقائه. فقتلها وفاء بنذره. ومثل هذه النذور تكون نوعا من الكفارة، إذ يريدون بها محو خطاياهم التي تحول دون فلاحهم في مهمة ما.

إذا فإعلان القرآن بأنه لا يمكن لنفس أن تمْثُل للحساب أمام الله تعالى نيابة عن نفس أخرى.. لهو إعلان حق ومنطقي، وتؤيده كتب اليهود والنصارى، وأقوال موسى وعيسى (عليهما السلام). وأما ما يوجد خلافه من نظريات خاطئة لدى هؤلاء القوم فقد نشأ عندهم بسبب أهواء ورغبات باطلة. ولقد ارتكبوا إهانة كبيرة في حق أسلافهم الصالحين باعتبارهم كفارة لذنوبهم، كما فتحوا باب الإثم على مصراعيه.

الشفاعة:

والأمر الثاني المذكور في الآية أنه لا تُقبل شفاعة أحدٍ لأحد. وفي هذا أيضًا دحض لما عند اليهود والنصارى من أفكار حول هذا الموضوع. كان اليهود يعتقدون بشفاعة النسب. لقد ظنوا أن كونهم من ذرية إبراهيم يوجب شفاعته لهم، فلن يعاقبهم الله تعالى، وإن عاقبهم يكون عقابا محدودا. وقد ذكر القرآن الكريم زعمهم هذا في قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا لَنْ تَمَسَّنَا النَّارُ إِلا أَيَّامًا مَعْدُودَةً﴾ (البقرة: ٨١).

ويقول المستشرق "سيل" في ترجمته للقرآن الكريم عند تعليقه على هذه الآية إن من مسلمات اليهود في عصرنا هذا أنه لن يدخل منهم أحد الجحيم، إلا "دارتن وأبيرام" والملحدون أكثر من أحد عشر شهرا أو سنة على الأكثر "ترجمة سيل للقرآن".

و لم أستطع العثور في الكتابات القديمة على نص بهذا المعنى، ذلك لاندراس الكثير منها، وأما الكتَّاب العصريون فقد ظنوا خطأ أن اليهود كقوم ينكرون البعث بعد الموت، ولذلك لم يبذلوا جهدا لمعرفة عقائد اليهود عن الحياة بعد الموت.

ولكن نعرف من التراث الإسلامي أن اليهود كانوا يؤمنون بالبعث بعد الموت على الأقل حتى إلى زمن الرسول ﷺ. فقوله تعالى: ﴿وقالوا لن تمسنا النار إلا أياما معدودة﴾ وغيره من آيات القرآن تؤيد ذلك. كما وردت روايات في الكتب الإسلامية حول هذا المعنى، فقد ذكر ابن إسحاق وابن جرير برواية ابن عباس أن اليهود يعتقدون بأن عمر الدنيا سبعة آلاف سنة، وبأنهم سيعاقبون يوما مقابل كل ألف سنة، ثم ينتهي عقابهم. وروى ابن جرير عن ابن عباس أن بعض اليهود يظنون أنهم يدخلون جهنم لأربعين يوما فقط، لأنهم عبدوا العجل أربعين يوما، ما عدا داتن وأبيرام اللذين تمردا على موسى وهلكا، وكذلك الملحدين.

هذا الاختلاف الوارد في رواية ابن عباس عن عدد أيام عقاب اليهود بأنها سبعة أو أربعون يرجع إلى اختلاف فرق اليهود في هذا الأمر. على أية حال تؤكد هذه الروايات أن اليهود إلى زمن نزول القرآن الكريم كانوا يؤمنون بالبعث بعد الموت، ولكنهم كانوا يحسبون أنهم لن يعاقبوا طويلا لانتسابهم إلى أبيهم إبراهيم. ويعود ظنهم هذا إلى قرون عديدة مضت، لأن اليهود الذين استوطنوا الجزيرة العربية جاءوها قبل الإسلام ببضعة قرون، وهذا يجعلنا نسلم بأن أفكار اليهود هذه كانت موجودة في البلاد الأخرى.

ولو أمعنا النظر في أسفار العهد القديم لوجدنا فيها إشارات إلى الحياة بعد الموت. والحق أن أي دين لا يُعتبر دينا كاملا ما لم يقدم التعاليم حول مسألة الحياة بعد الموت، لأنها الوسيلة لتحقيق الغرض من خلق الإنسان، وحرمان الناس من علمها يُعَدّ حرمانا من غرض الدين. فكل دين يقصِّر في هذه الناحية من التعاليم يحكم على نفسه بالبطلان. جاء في التوراة: "وقال الرب لموسى: ها أنت ترقد مع آبائك" (تثنية: ٣١:١٦). العبارة واضحة في دلالتها على أن روح موسى تكون بعد الموت مع أرواح آبائه، لأن قبره لم يكن حيث مقابر آبائه، فقد مات موسى في البرية و لم يبق لقبره علامة يعرف بها. قالت التوراة: "ولم يعرف إنسان قبره إلى هذا اليوم" (تثنية ٣٤: ٦). فالمراد من رقوده مع آبائه هو لقاء روحه بأرواحهم بعد الموت.

وكذلك ورد في التوراة أن الله تعالى قال لموسى عليه السلام: "ومت في الجبل الذي تصعد إليه، وانضمّ إلى قومك كما مات هارون أخوك في جبل هور وضُم إلى قومه" (تثنية ٣٢: ٥٠). تثبت هذه العبارة الحياة بعد الموت، وتشير إلى أن الأرواح البارة تقيم معا في مكان خاص، وإلا فما معنى الانضمام إلى الآباء بعد الموت؟

ويقول أيوب عليه السلام: "ليتني كنت مثل أجنة لم يروا النور".. أي لم يُعَمّروا. ثم يصف حالهم.: "هناك يكف المنافقون عن الشغب، وهناك يستريح المتعبون. الأسرى يطمئنون جميعا، لا يسمعون صوت المُسخَّر. الصغير كما الكبير هناك. والعبد حر من سيده." (أيوب ٣: ١٧-١٩)

ويقول داود عليه السلام مخاطبا ربه: "لن تَتْرُك نفسي في الهاوية. لن تَدَع تقيّك يرى فسادا. تعرِّفني سبيل الحياة" (مزامير ١٦: ١٠ و١١). ويقول أيضًا: "مِن الناس بيدك يا رب. مِن أهل الدنيا. نصيبهم في حياتهم. بذخائرك تملأ بطونهم. يشبعون أولادا ويتركون فضالتهم لأطفالهم. أما أنا فبالبر أنظر وجهك. أشبعُ إذا استيقظتُ بشَبَهِك" (مزامير ١٧: ١٤-١٥).

تبين كلمات داود عليه السلام هذه أن بعض الناس يكتفون بالحياة الدنيا، ولكن المؤمن يضع الحياة بعد الموت نُصب عينيه، لأنه سيحظى هناك بلقاء الله تعالى على وجه أتم، وتكون روحه في الحياة الآخرة على شبه الله تعالى، أي كاملة الصفات.

ويضيف داود مخاطبا ربه: "حياة سألك فأعطيته طولَ الأيام إلى الدهر والأبد" (مزامير ٢١: ٤).

يتبين من هذه العبارات أن في تعاليم موسى ومن بعده من الأنبياء دليلا قطعيا على الحياة بعد الموت. وإذا قرنَّا هذه الشهادة مع شهادة القرآن الكريم.. وهي شهادة تاريخية يراها حتى المخالفون وثيقة بشأن حال اليهود إلى العصر النبوي على الأقل.. فلا بد من الاعتراف بخطأ ما يقول به الباحثون المعاصرون من أن تعاليم أنبياء بني إسرائيل ليس فيها ذكر للحياة بعد الموت. إنه رأي ناتج عن قلة التدبر ولا يستند إلى دليل. والحق أن هذا التعليم كان موجودا في الديانة اليهودية منذ البداية، وكانوا يتعللون بأفكار وأماني يختلقونها فرارا من خوفهم من العقاب في الحياة الآخرة على ما سلف من أعمالهم في الدنيا. ومن هذه الأماني أنهم أولاد الأنبياء، وبشفاعتهم ينجون من عذاب الآخرة كلية أو يخفف عنهم فيعذَّبون أياما معدودة. والله تعالى ينفي هذه الفكرة ويبين أن ليست الشفاعة كي يتمادى الإنسان في الإثم، ولن تنالوا مثل هذه الرخصة أبدا، فأصلحوا أعمالكم، ولا تفسدوا عاقبتكم مغترين بأمانيكم التي ما أنزلنا بها من سلطان.

وربما اغتر اليهود في مسألة الشفاعة أيضًا لأهم أُنذروا مرارا بعقاب سماوي، ولكن الله تعالى رفعه عنهم بدعاء أنبيائهم.. فظنوا أن الحال سيكون كذلك في الآخرة. ولكن الحياة الآخرة لا تقاس بالحياة الدنيا، لأن رفع العذاب في هذه يهيئ للإنسان فرصة للتوبة وفعل الخير، أما الآخرة فهي دار الحساب والحكم النهائي. ولو كانت النجاة في الآخرة تتحقق بمثل هذه السبيل لكانت الحياة الدنيا عبثًا محضًا.

وفكرة الشفاعة موجودة لدى النصارى أيضًا. جاء في الإنجيل: " يا أولادي، أكتب إليكم هذا لكيلا تخطئوا. وإن أخطأ أحد فلنا شفيع عند الأب يسوع المسيح البار وهو كفارة لخطايانا، وليس لخطايانا فقط بل لخطايا كل العالم أيضًا" (رسالة يوحنا الأولى٢: ١-٢). وهنا ينشأ سؤال: هل الكفارة والشفاعة شيء واحد؟ وإذا كان هكذا فلماذا ذُكر كل واحد منهما على حدة؟ تصمت الكتب المسيحية حسب معلوماتي عن الإجابة على هذا السؤال، ولكن بالنظر في معنى الكلمتين نجد هناك فرقا بينهما. فالكفارة محو أثر فعل بفعل آخر. ولكن الشفاعة لا تدل على الفعل العوض، وإنما تعني أن يتوسط أحد لصالح مخطئ وإن كان الوسيط لا يقدم عوضًا عن خطأ الفاعل.. وإنما يطلب له الغفران بناء على علاقته بصاحب الأمر. وأرى أن النصارى لم يدركوا هذا الفرق بين الشفاعة والكفارة وخلطوا بينهما.

وموجز القول أن اليهود والنصارى كانوا ولا يزالون يظنون خطأ أن الله تعالى لن يعذبهم، أو يعذبهم أقل العذاب بسبب أسلافهم الصالحين المقربين. وهذا ما شجعهم على ارتكاب المعاصي، وجعلهم لا يتّجهون إلى التفكير في الحقائق الإلهية. وبكشف خطئهم هذا يسعى القرآن لإيقاظ فطرهم النائمة ويحيي فيهم ملَكةَ التفكر في الحقائق الدينية.

ومن الضرروي هنا إزالة سوء فهم يروجه الكتاب النصارى ضد الإسلام ومؤسسه ﷺ. يقولون -استنادًا إلى هذه الآية ومثيلاتها- أن الإسلام لا يقول بمبدأ الشفاعة، وأن المسيح وحده الذي ادعى بشفاعته للناس، وأن نبي الإسلام ليس شفيعًا لأحد بحسب ما ورد في القرآن (ترجمة ويري للقرآن)، وأن اعتقاد المسلمين بكونه شفيعًا لهم اعتقاد باطل ومن بنات أفكارهم، ولا يستند إلى نصوص القرآن وإنما إلى أحاديث ضعيفة.

ولكن زعمه هذا ناشئ عن سوء فهم. ولسوف أتناول موضوع الشفاعة في مكانها في القرآن الكريم، إن شاء الله تعالى، ولكني أود هنا بيان أن القرآن لا ينكر الشفاعة، وإنما يعلن بطلان الشفاعة التي يؤمن بها اليهود والنصارى. ففي سورتنا هذه يقول القرآن: [من ذا الذي يشفع عنده إلا بإذنه](٢٥٦)، ويقول:

[ولا يملك الذين يدعون من دونه الشفاعة إلاَّ من شهد بالحق وهم يعلمون](الزخرف:٨٧).. أي هؤلاء الذين يشركونهم بالله لا يملكون حق الشفاعة لأحد وإنما يملكه عبدنا هذا الذي يشهد بالحق، وهم يعرفون أنه الشاهد بالحق. فالقرآن يقول بالشفاعة، وينفي فقط تلك الشفاعة غير المنطقية التي تشجع الناس على الذنوب وتصرفهم عن إعمال الفكر في الحقائق.

ثم إن كلمات الآية التي نفسرها وحدها كافية لتأكيد ما نقول، إذ لم تقل بأنه لن تكون هناك شفاعةٌ مطلقًا، بل تقول: لا تقبل من أحد، بمعنى أنه لا تقبل شفاعة من مجرم.

وقوله تعالى: [و لا يؤخذ منها عدل] رد لخطأ ثالث كان يشجع اليهود والنصارى على الذنوب، إذ ظنوا أن الآثمين سوف ينجون من العقاب بتقديم عوض عن أخطائهم. وهذه العقيدة موجودة عند اليهود والنصارى كليهما. وطائفة الرومان الكاثوليك من بين النصارى أشد تمسكًا بهذا الاعتقاد من اليهود. فعندما يرتكب أحدهم إثمًا يذهب إلى القسيس، فيُقدِّرله عقوبة ما، فإذا أوقعها على نفسه ظنَّ بأن ذنبه قد غفر. وكان اليهود، ولا يزالون، معتادين على أداء عوض عن ذنوبهم بتقديم القرابين.

ولكن الإسلام لا يقبل بمثل هذا العوض عن الذنوب، وإنما مفهوم الاستغفار في الإسلام أن يكره الإنسان الإثم ويتجنبه. والحق أنه ليس هناك معنى آخر للاستغفار من الذنوب. على سبيل المثال، لو قتل أحد شخصًا ثم قدم صدقة، فكيف يُغفَر له ذنبه ذلك؟ أو اعتكف في الكنيسة صائمًا فكيف يحصل له الغفران؟

لا شك أن الإسلام أيضًا شرع بعض الأعمال كفارة لبعض الأخطاء، ولكنها أخطاء تتعلق بأشكال ظاهرية للعبادة، وليس هناك تعليم كهذا فيما يتصل بتضييع حق من حقوق العباد أو حقوق الله تعالى. فمثلاً لو ترك أحد ركنًا من أركان الحج اضطرارًا أو نسيانًا أُمِرَ بتعويضه بعمل من أعمال الخير كصدقة أو صيام أو نسك. ولو قتل أحدًا خطأ أُمِرَ بفعل خيرٍ عوضًا عنه. ولا يعني ذلك أن فعل الخير أزال عنه الإثم، وإنما الهدف من ذلك أن يتحقق الغرض من الشكل الظاهري للعبادة بطريق آخر، أو أن ينتبه الإنسان في المستقبل فلا يقع بسبب عدم الحيطة في خطأ يتضرر به الآخرون.

قوله تعالى: [ولا هم ينصرون].. أي لا ينجيهم من عذاب الله تعالى أي من هذه الطرق غير الطبيعية. هناك طريق واحد للنجاة من العذاب.. ذلك أن يبذل الإنسان غاية جهده لفهم الحق وقبوله، ويتبع أحكام الله تعالى بكل ما في وسعه ويلبي دعوته. فعلى اليهود والنصارى ألا يعتمدوا على طرق اختلقوها بأنفسهم، بل عليهم أن يقبلوا الحق الجديد من الله تعالى، وإلاَّ فلن تجديهم حيلة أخرى.

وعلاقة هذه الآية بالتي قبلها أن الآية السابقة تقول أن الله تعالى فضَّلكم على أهل زمانكم، فكان الواجب عليكم أن تكونوا عبادًا شاكرين مطيعين له، ولكنكم على عكس ذلك تلجأون إلى الحيل للتخلص من طاعته، وتحاولون استغلال هذه الفضيلة لخداع من لا يعرفون.

﴿وَ إِذْ نَجَّيْنَاكُم مِنْ آلِ فِرعَونَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ العَذَابِ يُذَبِّحُونَ أَبنَآءَكُم وَيَستَحيُونَ نِسَآءَكُم وَفي ذَلِكُم بَلآءٌ مِنْ رَبِّكُم عَظِيمٌ ﴾ (٥٠)

شرح الكلمات:

آل: الآل هم الأهل والقوم (الأقرب). وقيل: الآل مقلوب من الأهل (المفردات). وأهل الرجل: عشيرته وذوو قرباه؛ زوجته. وأهل نبي: أمته. وأهل بيت: ساكنوه. وأهل الأمر: أصحاب الحكم والسلطان (الأقرب). هناك فرق بين الأهل والآل فقالوا: إن الآل خُصَّ بالإضافة إلى أعلام الناطقين دون النكرات ودون الأزمنة والأمكنة، يقال آل فلان ولا يقال آل الرجل ولا آل زمان كذا أو موضع كذا، ولا يقال آل الخياط بل يضاف إلى الأشرف الأفضل، فيقال آل الله وآل السلطان. والأهل يضاف إلى الكل يقال: أهل الله وأهل الخياط كما يقال أهل زمن كذا وبلد كذا (المفردات). فمعنى "آل فرعون" أي قوم فرعون.

فرعون: لقب كل من ملك مصر في زمن قدماء المصريين، ويطلقه البعض على كل عاتٍ متكبر متمرد، وجمعه فراعنة. فرعن الرجل: كان ذا دهاء ومكر. تفرعن فلان: طغى وتجبر. وتفرعن النبات: طال وقوي. ويقال للتمساح فرعون (الأقرب). فكأن هذا الاسم أطلق على الملوك القدامى المصريين لشدة ذكائهم وبأسهم وسلطانهم.

يسومونكم: سام فلانًا الأمرَ: كلّفه أياه. وأكثر ما يُستعمل في الشر والعذاب. سامَ البائعُ السلعةَ: عرَضها وذكَر ثمنها. سامَه خسفًا: أولاه إياه وأراده عليه (الأقرب). والسَّوم: الذهاب في ابتغاء الشيء، فهو لفظ لمعنًى مركَّبٍ من الذهاب والابتغاء، وأُجْرِيَ مجرى الذهاب في قولهم: سامت الإبل فهي سائمة، ومجرى الابتغاء في قولهم: سُمْتُ كذا، قال: ﴿يسومونكم سوءَ العذاب﴾(المفردات). وسامَه: ألزمَه وجشَّمه (التاج).

فمعنى: ﴿يسومونكم سوء العذاب﴾ أنهم كانوا يعذّبونكم عذابًا شديدًا، أو كانوا يريدون أن يعذّبوكم عذابًا شديدًا.

يذبّحون: ذبَح: شقَّ؛ خنَق؛ نحَر (الأقرب). الذبح: قطعُ الحلقوم (اللسان). الذبح: الهلاك (التاج). والمراد به في الآية القتل أو الخنق.

يستحيون: استحياه: أبقاه حيًا، وقال اللحياني: استبقاه و لم يقتله (اللسان).

بلاء: بلوت الرجل بلاء وبلوًا وابتليته: اختبرته. ابتلاه الله: امتحنه، والاسم منه البلوي والبلوة والبلية والبلاء. والبلاء يكون في الخير والشر.. يقال ابتليته بلاءً حسنًا وبلاءً سيئًا. والله تعالى يبلي العبد بلاءً حسنًا ويبليه بلاءً سيئًا. والبلاء: الإنعام (اللسان). وفي القرآن: ﴿وبلوناهم بالحسنات والسيئات﴾.

عظيم: عظم الشيء عِظمًا وعظمة: كبر. وعظم الأمر على فلان: شق وصعب (الأقرب). فمعنى عظيم: كبير، شاق وصعب.

التفسير: بهذه الآية بدأ الله تعالى يعدد النعم التي لم يزل ينعم بها على بني إسرائيل لمدة طويلة. وأول هذه النعم أن بني إسرائيل كانوا يعيشون تحت حكم الفراعنة في مصر عبيدًا، فأرسل الله عبده موسى وأنجاهم به. لقد صوَّر كتابُهم المقدس حياة العبودية التي عاشوها فقال: " ثم قام ملك جديد على مصر لم يكن يعرف يوسف. فقال لشعبه: هو ذا بنو إسرائيل شعب أكثر وأعظم منا. هلمّ نحتال لهم لئلا ينموا، فيكون إذا حدثت حرب أنهم ينضمون إلى أعدائنا ويحاربوننا ويصعدون الأرض. فجعلوا عليهم رؤساءَ تسخير كي يُذلّوهم بأثقالهم. فَبنوا لِفِرْعَوْنَ مَدِينَتَيْ مَخَازِنَ: فِيثُومَ، وَرَعَمْسِيسَ. وَلكِنْ بِحَسْبِمَا أَذَلُّوهُمْ هكَذَا نَمَوْا وَامْتَدُّوا، فَاخْتَشَوْا مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ. فاستعبدَ المصريون بني إسرائيل بعنفٍ وَمَرَّرُوا حياتهم بعبودية قاسية في الطين واللِّبَن وفي كل عمل في الحقل. كل عملهم الذي عملوه بواسطتهم عنفًا." (خروج ١: ٨-١٤)

قوله تعالى: ﴿يذبحون أبناءكم﴾. كان رعمسيس الثاني، الذي ولد موسى في زمنه، شديد العداوة لبني إسرائيل، فأمر بقتل أبنائهم خوفًا من ازدهارهم، ولكنه لم يفلح في خطته تمامًا لإشفاق القابلات على المواليد. فأمر أخيرًا أن يطرح أبناؤهم دون البنات في النهر. (خروج ١: ٢٢).

وتوجد مثل هذه الروايات في التلمود. كما ورد في الإنجيل: " فاحتال هذا على جنسنا وأساء إلى آبائنا حتى جعلوا أطفالهم منبوذين لكي لا يعيشوا " (أعمال:١٨).

لقد انخدع البعض من كلمة "يذبّحون" في الآية فظنوا أن القرآن يقول بأن المصريين كانوا يخنقون مواليد بني إسرائيل مع أن التاريخ يقول بغير ذلك. وأوقعهم في هذا الوهم كون الخنق من معاني الذبح، وغفلوا عن المعنى الآخر وهو الهلاك كما بيّنا في شرح الكلمات. فالمعنى الحقيقي أنهم كانوا يهلكون المواليد بأي

طريقة كانت. وقد وضّح القرآن هذا المعنى في موضع آخر حيث قال: [يقتّلون أبناءكم] (الأعراف: ٤٢).

وقوله تعالى: [وفي ذلكم بلاء من ربكم عظيم] أي في نجاتكم من هذا الكرب إنعام من الله كبير، إذ ترتبت على هذه النجاة سلسلة من نِعَم عظيمة أخرى.

﴿وَإِذ فَرَقْنَا بِكُمُ البَحرَ فَأَنجيناكم وأَغرقنآ ءَالَ فِرعَونَ وَأَنتُم تَنظُرُونَ﴾ (٥١)

شرح الكلمات:

فرَقْنا: فرَقنا بكم البحر أي فلقناه (الأقرب).

تنظرون: نظره ونظر إليه: أبصره وتأمله بعينه. نظره: مد طرفه إليه رآه أو لم يره. نظر في الأمر نظرًا: تدبره وتفكر فيه يقدره ويقيسه. نظر بين الناس: حكم وفصل دعاواهم. ونظر للقوم: رثى لهم وأعانهم. نظر الشيء: انتظره. يقال داري تنظر إلى دار فلان أي تقابلها (الأقرب).

فمعنى [وأنتم تنظرون]:

١. كنتم تشاهدون آل فرعون وهم يغرقون.
٢. كنتم تحكمون عند غرق آل فرعون أنهم على الباطل وأنكم على الحق.
٣. كنتم تشفقون على آل فرعون عند غرقهم وتقولون في أنفسكم ليتهم لم يرتكبوا الشر و لم يلقوا هذا المصير.
٤. كنتم تنتظرون هلاكهم.
٥. كنتم بمقابل آل فرعون عند غرقهم.

التفسير: قوله تعالى: [وإذ فرقنا بكم البحر] يعني لفظيًا: عندما شققنا البحر بواسطتكم، وبسبب هذا المعنى لحرف الباء انخدع معظم المفسرين، وفسروا الآية أن بني إسرائيل كانوا ذريعة لفلق البحر. أُمروا بخوض البحر.. فكانوا كلما تقدّموا فيه تراجع الماء على جانبهم. ولكن هذا المعنى باطل لقوله تعالى في موضع آخر: [فأوحينا إلى موسى أن اضرب بعصاك البحر فانفلق فكان كل فرق كالطود العظيم](الشعراء: ٦٤). يتبين من ذلك أن بني إسرائيل لم يكونوا سببًا في انفلاق البحر، وإنما كانت العصا هي السبب الظاهري فيما جرى.

فما معنى حرف "الباء" هنا إذًا؟ والجواب أن حرف الباء يفيد أيضًا التعليل والسببية. فالمعنى: أننا فرّقنا لأجلكم البحرَ.. أي لنجاتكم، أو بعبارة أخرى: فرقنا لكم البحر. (البحر المحيط والكشاف)

وقوله تعالى إشارة إلى معجزة أظهرها الله لموسى عندما كان يخرج ببني إسرائيل من مصر إلى الشام، وطاردهم فرعون مع جنوده لإعادتهم. وقد ورد في التوراة: "ومدّ موسى يده على البحر، فأجرى الرب البحر بريح شرقية شديدة كل الليل وجعل البحر يابسة وانشق الماء. فدخل بنو إسرائيل وسط البحر على اليابسة والماء سور لهم عن يمينهم وعن يسارهم. وتبعهم المصريون ودخلوا وراءهم.. جميع خيل فرعون ومركباته وفرسانه إلى وسط البحر. وكان في هزيع الصبح أن الرب أشرف على عسكر المصريين في عمود النار والسحاب، وأزعج عسكر المصريين، وخلع بكر مركباتهم حتى ساقوها بثَقْلَة. فقال المصريون: نهرب من إسرائيل لأن الرب يقاتل المصريين عنهم. فقال الرب لموسى: مد يدك على البحر ليرجع الماء على المصريين على مركباتهم وفرسانهم. فمد موسى يده على البحر. فرجع البحر عند إقبال الصبح إلى حاله الدائمة والمصريون هاربون إلى لقائه. فدفع الرب المصريون إلى وسط البحر. فرجع الماء وغطى مركبات وفرسان جميع جيش فرعون الذي دخل وراءهم في البحر. لم يبق منهم ولا واحد. وأما بنو إسرائيل فمشوا على اليابسة في وسط البحر والماء سور لهم عن يمينهم وعن يسارهم. فخلّص الرب في ذلك اليوم إسرائيل من يد المصريين. ونظر إسرائيل المصريين أموات على شاطئ البحر. ورأى إسرائيل الفعل العظيم الذي صنعه الرب بالمصريين. فخاف الشعب الرب وآمنوا بالرب وبعبده موسى" (خروج١٤: ٢١-٣١)

لقد وردت هذه القصة في القرآن الكريم في مواضع أخرى أيضًا.. فجاء قوله: [فأوحينا إلى موسى أن اضرب بعصاك البحر، فانفلق فكان كل فرق كالطود العظيم](الشعراء:٦٤)، وجاء أيضًا: [ولقد أوحينا إلى موسى أن أسر بعبادي فاضرب لهم طريقًا في البحر يبسًا. لا تخاف دركًا ولا تخشى ۝ فأتبعهم فرعون بجنوده فغشيهم من اليمّ ما غشيهم ۝ وأضلّ فرعون قومه وما هدى](طه: ٧٨ -٨٠).

بالجمع بين هذه الآيات كلها تبدو تفاصيل الحادثة كما يلي: كان بنو إسرائيل سائرين يريدون الأرض المقدسة. وعندما لحق بهم فرعون بجيشه أصابهم الهلع وظنوا أنهم مدركون. ولكن الله تعالى طمأنهم بأن أوحى إلى موسى أن يضرب البحر بعصاه ففعل. فتراجع الماء على الجانبين وظهر لهم طريق في البحر وتقدموا فيه، وكان الماء يمتد على الجانبين، فيتراءى لهم مرتفعًا كالتلال. وتبعهم فرعون وجنوده يطاردونهم. ولما وصل بنو إسرائيل إلى الجانب الآخر سالمين تراجع الماء مرة أخرى وأُغرق المصريون.

ولفهم هذا الحادث يجب أن نتذكر أن القرآن الكريم يعلمنا بأن كل المعجزات تكون من الله تعالى، ولا دخل ولا تصرف للإنسان فيها. فكان ضرب موسى البحر بعصاه بمثابة علامة لا غير، وليس معناه أنه كان لموسى أو لعصاه أي دخل في تراجع ماء البحر. كما يجب أن نتذكر أيضًا أنه لا يثبت أبدًا من ألفاظ القرآن أن البحر انشق إلى جزئين منفصلين وأن موسى مر بينهما. ولقد عبر القرآن عن هذا

الحادث بكلمتين: "الفرق" و"الانفلاق" ومعناهما: "الانفصال". فكأن ماء البحر انفصل مبتعدًا عن اليابسة عند مرور بني إسرائيل، فظهرت الأرض، ومرّوا عليها. وتحدُث هذه الظاهرة على شواطئ البحر. فقد ورد في كتاب حياة نابليون أنه عندما غزا مصر مرّ مع بعض جنوده على شاطئ البحر الأحمر وقت الجَزْر، وبينما كان يعبر هذا الموضع جاء وقت المَدّ وارتفع الماء وتمكن هو وجنوده من النجاة بصعوبة.

والمعجزة في هذا الحادث هي أن الله تعالى أتى ببني إسرائيل إزاء البحر في وقت الجَزْر ، وما أن رفع موسى يده بالعصا لضرب البحر حتى بدأ الجَزْر وتراجع الماء. وعندما دخل فرعون مع جنوده البحر وقعت لهم من العوائق غير العادية أثناء العبور ما قلل سرعتهم كثيرًا، وكانوا لا يزالون في وسط البحر عندما أدركهم المَدّ فغرقوا. وهذا ما يؤيده وصف القرآن للحادث بقوله: [فكان كل فرق كالطود العظيم].. أي عندما تراجع ماء البحر كان كل جزء منه كالتل الرملي المرتفع. فلو كان القرآن يريد القول بأن البحر قد انشق جزئين لما استخدم كلمة "كل" التي تدخل على نكرة مفردة. فلفظ "كل" تبين أن البحر لم ينشق إلى قسمين وإنما تراجع الماء عن أماكنه.. كما يحدث في البحار التي توجد على جوانبها حفر ومنخفضات، فتبقى ممتلئة بالماء وقت الجَزْر. وهذا ما حدث وقتها هناك. كان على جانب بني إسرائيل بحر من ناحية، ومن ناحية أخرى تلك البحيرات الصغيرة والحفر الممتلئة ماء. وكما هي ظاهرة طبيعية.. تبدو هذه المساحات المائية لمن يمر بينها كأنها تلال من الماء. ويتبين من خريطة خليج السويس أنه توجد على شواطئه العديد من البحيرات التي كانت أكثر عددًا في الماضي كما تدل على ذلك الخرائط القديمة.

بعد ذكر معنى الآية من وجهة نظري أرى من المناسب ذكر ما رآه المفسرون السابقون. يرى هؤلاء أن موسى عليه السلام عبر النيل، ويضيفون أن النهر انشق من اثني عشر موضعًا. ويستدلون على هذا بقوله تعالى: [فكان كل فرق كالطود العظيم]. ويرون أنه انشق هكذا لتعبر قبائل بني إسرائيل الاثنتا عشرة كل على حدة. ويبالغون في هذه القصة إلى قول أنه كان هناك حاجز من الماء يفصل بين كل قبيلة وأخرى، ورفضت القبائل العبور ما لم تر كل واحدة منها الأخرى. فدعا موسى ربه، فأمره أن يدخل عصاه في جدار الماء ففعل. فحدثت ثقوب في الحاجز حتى سمع ورأى منها بعضهم بعضًا (الكشاف). وكأن الماء قد تجمد بحيث يبقى الثقب على حاله، وكأن عصا موسى طالت حتى شقت بضربة واحدة كل الحواجز الاثني عشر التي مرت بينها بنو إسرائيل!! ولم يلق أحد من المفسرين الضوء على سبب إنشاء طريق لكل قبيلة على حدة، مع أنهم على هذا الحب الشديد الذي جعلهم لا يرتاحون إلا برؤية بعضهم البعض، ولم يطمئنوا للعبور مع وجود موسى بصحبتهم؟ لماذا لم يستطيعوا العبور جميعا عن طريق واحد؟!

إن المفسرين وقعوا في خطأ خطير ظنًا منهم أن الماء الذي عبره موسى مع قومه هو ماء النيل، ولكن الأحداث لا تثبت ذلك. فكما يتبين من التاريخ والآثار القديمة كان سكان العاصمة في زمن موسى عليه السلام وإلى زمننا هذا يقيمون على الجانب الشرقي من النيل لا الغربي منه (انظر الخريطة)؛ يتبين من هذه الخريطة بوضوح أن أرض كنعان التي قصدها موسى وقومه تقع إلى الشمال الشرقي من النيل. وكانت عاصمة الفراعنة في منطقة (جوشن) وتسمى أيضًا (وادي الثميلات) (موسوعة الكتاب المقدس، تحت كلمة رعمسيس). وهذا الوادي يقع في الشرق من النيل، وكل من يسافر إلى كنعان من هناك لا يعبر النيل. وبما أنه لا يقع أي نهر بين عاصمة مصر القديمة وبين قادس التي وصل إليها موسى مع بني إسرائيل، فلزم أن يكون المكان الذي عبره موسى وقومه بحرًا أو جزءًا كبيرًا منه. فكل هذه القصص التي ذكرها المفسرون لغو لا يصدقه القرآن الكريم. إنه يستعمل كلمة البحر واليم، وكلمة (اليَمّ) وإن كانت تطلق على النهر أيضًا إلا أنها أكثر استعمالاً في البحر أو البحيرة المالحة. ولا يقع بين موطن بني إسرائيل في مصر وبين كنعان إلاَّ البحر أو البحيرات المنشقة منه، وليس هناك نهر جارٍ. فالمكان الذي عبره موسى إما هو بحر أو شرم منه.

فكما ذكرت من قبل، انطلق فرعون مطاردًا بني إسرائيل بعد خروجهم من موطنهم بيوم على الأقل، ولذلك سبقوه إلى ساحل البحر حيث كان الجَزْرُ قد بدأ. ثم لما لمحوا جيش فرعون قريبًا منهم دخلوا الطريق الخالي من الماء وقطعوا معظمه. ولما وصل فرعون إلى الساحل اندفع بجيشه وراءهم مع مركباته. وتسببت الأرض الرخوة في تأخير مسيرة فرعون، إذ غاصت مركباته فيه وتعطلت. ولقد استغرق ذلك وقتًا طويلاً تمكن بنو إسرائيل أثناءه من الخروج من المنطقة، وخلفوا جيش فرعون وراءهم. وفاجأ المد جيش فرعون وزاد في ارتباكه فلم يستطع أن يتقدم أو يتأخر. وفي النهاية أغرق الماء معظم جيشه معه. وبسبب اندفاع الماء خرجت جثثهم على الساحل فيما بعد.

وقد أسلفت الرد على من يسأل: إذا كان موسى قد استفاد من ظاهرة المد والجزر، فأين المعجزة؟ وقلت أن المعجزة هي أن الله تعالى أتى به عند ساحل البحر في وقت بداية الجَزْر.

وهنا ينشأ سؤال: لماذا لم يطاردهم فرعون سالكًا طريق البر اليابس بدلاً من الدخول وراءهم في هذا الطريق الذي ظهر داخل الساحة المائية؟ والجواب أن بني إسرائيل عبروا على الأغلب من مكان قريب من مدينة السويس يضيق فيه البحر إلى ثلثي ميل تقريبًا (موسوعة الكتاب المقدس). أما المنطقة الشمالية منها فتكثر بها البحيرات والأرض الرخوة المتحركة الخطيرة. وقد توجه موسى إليها أول الأمر، ثم تركها لخطورتها ووعورتها، ونزل إلى المكان الذي عبر منه. ويقول الكتاب المقدس: "وكان لما أطلق فرعون الشعب أن الله تعالى لم يهدهم في طريق أرض الفلسطينيين مع أنها قريبة، لأن الله قال: لئلا يندم الشعب

إذا رأى حربًا ويرجعوا إلى مصر. فأدار الله الشعب في طريق برية بحر سوف" (خروج: ٧: ١٧- ١٨). فلو اتجه فرعون إلى طريق البر لكان عليه أن يدور حول البحيرات شمالاً، ولكان بنو إسرائيل أثناء ذلك قد أفلتوا منه بمسافة بعيدة وخرجوا من مملكته. ولذلك لم ير سبيلاً للحاق بهم إلاَّ أن يتبع خطاهم في طريق البحر (راجع سفر الخروج ١٣ و١٤، لتجد صورة إجمالية لخروج بني إسرائيل من مصر، وإن كان يتضمن كثيرًا من الأخطاء والمبالغات).

من أين عبر بنو إسرائيل؟ هذا موضوع يتناوله الباحثون الجدد. فيرى بعضهم أن موسى عبر من قرب بحيرة التمساح اعتمادًا على ورود ذكر نهر في التوراة.. وأنها كانت متصلة بالبحر عن طريق قناة في زمن سابق (موسوعة الكتاب المقدس، خروج). ويرى البعض الآخر أنهم لم يمروا قرب بحر القلزوم بل مروا بالقرب من "زوآن" قريبًا من البحر المتوسط (المرجع السابق). ويرى غيرهم أنهم لم يكونوا يعيشون في مصر الأفريقية، وإنما عاشوا في "مصر" الواقعة في شمال الجزيرة العربية. ويرون أن بني إسرائيل أخطأوا وكتبوا في التوراة "مصر" (نفس المرجع). وبحسب هذا الرأي، لو أنهم عبروا بحرًا فعلاً لكان من الشرق إلى الغرب لا العكس، ولم يعبروا خليج السويس وإنما عبروا خليج العقبة. وإذا اعتبرنا موقع مصر التي في الجزيرة العربية لوجدناها أبعد إلى الشمال ومن ثَمَ لم يعبروا أي بحر، وتكون قصة العبور كلها مُختلقة.

ويتأكد من بحث الآثار والتواريخ القديمة أنه كانت هناك عدة مناطق تسمى "مصر" وكانت تقع في شمال إفريقيا وجنوب الشام وشمال الجزيرة العربية، بل كانت هناك أماكن أخرى تسمى مصر أو مصران أو مصرام أو مصرايم أو مُصرى. وبسبب ذلك عندما وجد هؤلاء الباحثون بعض ما ورد في التفاصيل عن حادثة الخروج في التوراة لا ينطبق على مصر الإفريقية قالوا أنها وقعت في مصر التي بالجزيرة العربية، ويحتّجون على رأيهم بذهاب موسى إلى مدين، لأن مدين تقع قرب حدود مصر الجزيرة العربية.

وإطلاق اسم مِصر على عدة مناطق قد يُعَدّ عجيبًا لدى الكتاب الغربيين، ولكنه ليس كذلك عند العلماء الذين يعرفون اللغة العربية، لأن كلمة "مِصر" تعني في اللغة بلدًا أو مدينة. ويعرف اللذين عاشوا في مدن كبيرة أو زاروها أن من يعيشون حول هذه المدن يشيرون إليها باسم "مصر" بدلاً من ذكر اسمها، فمثلاً يقول أهل الريف عند زيارتهم للقاهرة أنهم ذهبوا إلى مصر. فلا عجب إذا أطلق العرب أو من لهم لغة تشبه العربية اسم مصر على منطقة فيها بلدان كبيرة سواء كانت في الشام أو في الجزيرة العربية أو في أفريقيا.. وذلك في زمن لم توجد فيه مدن كبيرة. وما كان مرادهم من كلمة مصر أو مصرام وغيرهما إلاَّ أنها منطقة فيها بلدان. وكان العيش في المدن أعجوبة عند قوم من أهل البادية كالعرب، وكانت المناطق التي تكثر فيها المدن أمرًا محيرًا لهم، ولذلك كان من الطبيعي أن يطلقوا عليها اسم مصر أو أمصار أو ما

شابه ذلك. فلا يمكن الاحتجاج بكلمة "مصر" وحدها على أن أحداث خروج بني إسرائيل وقعت في مصر من هذه الأمصار وليس مصر الأفريقية.

إذًا، فبسبب اختلافاتهم في جزئيات الطريق الذي مرَّ منه بنو إسرائيل لا نستطيع أن نصرف النظر عن المسألة الأساسية.. وهي اتفاق القرآن الكريم والتوراة على أن ملوك مصر التي خرج منها بنو إسرائيل كانوا يسمون فراعنة، وكانوا يحنطون جثث موتاهم، وهذا ينطبق على مصر الأفريقية وحدها.

هذا، وتاريخ الأزمنة القديمة ليس محفوظًا بحيث نستطيع معرفة تفاصيله معرفة صحيحة مائة بالمائة. فعلينا أن نتخذ ذلك الاتفاق الذي بلغ من الصحة سبعين بالمائة مثلاً ونترك الاختلاف الذي ينحصر في الثلاثين بالمائة المتبقية، ولا نرتكب حماقة فعل العكس.

وهناك البعض الذين يحاولون أن يثبتوا من شهادة التاريخ السلبية أو الإيجابية أن بني إسرائيل لم يدخلوا مصر و لم يعيشوا فيها أصلاً. ويُبنى استدلالهم على الأمور التالية:

١. عدم ذكر بني إسرائيل في الآثار المصرية القديمة.

٢. يتبين من أثر يعود إلى زمن الملك منفتاح – الذي يقال إن موسى أخرج بني إسرائيل من مصر في عهده – أن بعض قبائل بني إسرائيل كانوا يعيشون في كنعان في العام الخامس من عهده. وتقول التوراة إنهم خرجوا من مصر في عهده ودخلوا كنعان بعد حوالي خمسين سنة.

٣. صحيح أن الآثار المصرية تذكر مجيء بعض القبائل الآسيوية إلى مصر، ولكننا إذا طبقنا هذه الأحداث على بني إسرائيل تطابقت الأحداث و لم تتوافق التواريخ، وإذا توافقت التواريخ لم تطابق الأحداث. فثبت أن كل القصة مُختلقة.

ولما كان القرآن الكريم يذكر دخول بني إسرائيل في مصر وخروجهم منها فلا بد لنا من الرد على هذه النظريات، فنقول:

أولاً: ليس ضروريا أن يعرف كل شيء بالآثار القديمة. فلو بادت أمة متقدمة من هذا الزمن المتحضر.. فهل يمكن معرفة تفاصيل تاريخهم الكامل: عددهم وعاداتهم وعلومهم وفنونهم ودياناتهم ومذاهبهم.. من دراسة آثار مدينة أو مدينتين منها؟ فإن لم يكن ذلك ممكنًا.. فما أسخف الظن بأنه بالحفر والتنقيب في بلد أو بلدين يمكن معرفة تفاصيل دقيقة كاملة عن أحوال أمة مضت منذ آلاف السنين! إنه أمر مخالف للعقل، ولو بنينا عليه علمًا لكان ذلك استهزاء بالعلم نفسه. إن الحصول على الشهادة الأثرية الإيجابية ذو قيمة بلا شك وإن كان فيها احتمال خطأ كبير، ولكن القول بأن قومًا لم يعيشوا في مكان لأننا لم نعثر بعد على آثار لهم لقول خاطئ وخلاف العقل. كان الواجب على هؤلاء الكتاب تجنب ذكر ذلك في كتبهم العلمية. أي وزن كان لبني إسرائيل في مصر؟ كانوا يعيشون عبيدًا، و لم تعهد إليهم مسئوليات

ذات قيمة حتى يكون لهم ذكر في الآثار التاريخية. وأبرز ما كان يميزهم هو دينهم المختلف عن دين المصريين. وربما لم يكن حكام مصر في ذلك الوقت مصريين خالصين، ولذلك كانوا يخشون تآمر بني إسرائيل مع الأعداء ضدهم. وفي مثل هذه الظروف لم يكن هناك داع لذكر اسم بني إسرائيل في الآثار التاريخية. وإن كان لهم هناك ذكر فإن الآثار لا تعطي إلا نتفًا من التاريخ وليس كل التاريخ. فسكوتها عن ذكرهم لا يكون دليلاً على عدم مكوث بني إسرائيل في مصر.

ثانيًا: أما قولهم بوجود أثر فرعوني من زمن منفتاح أو ملك قبله يدل على أن بني إسرائيل وقتها كانوا يعيشون في كنعان.. فذلك قول لا وزن له أيضًا، لأن هذا الأثر الذي لم يتعين تاريخه، إذا كان من زمن ما بعد يوسف وما قبل خروج موسى، فإنه يعني فقط أن جزءًا من بني إسرائيل كان قد هاجر إلى كنعان قبل خروج موسى إلى مصر، وأما إذا كان من زمن ما قبل يوسف أو ما بعد خروج موسى فهذا لا يشكل دليلاً خلاف ما نقول.

ثالثًا: أما قولهم بأنه مما لا شك فيه أن بعض الشعوب الآسيوية ورد ذكرهم في تاريخ مصر ولكنه لا ينهض سببًا لاعتبارهم بني إسرائيل، فهو دليل سلبي محض. والدليل السلبي القائم على آثار ناقصة ليس دليلاً، ومثله كمثل من يدعي بعدم وجود موضوع ما في كتاب ضاعت منه نصف صفحاته. فربما كان الموضوع مذكورًا في الصفحات الضائعة.

والآن أقدم أدلة قياسية على عيش بني إسرائيل في مصر:

١. يعترف هؤلاء المنكرون أنفسهم بأن اسم موسى موجود في اللغة المصرية القديمة. فيرون أن أصل كلمة "مُوسي" هو "مَوْسِي" ومعناه الابن. (موسى والتوحيد، سيجمدون فرويد). وإذا كانت هذه دعوى صحيحة فقد ثبت أن بني إسرائيل عاشوا في مصر الأفريقية، وطال عيشهم هناك حتى تسمّوا بالأسماء المصرية. وهؤلاء يدّعون أيضًا أن أسماءَ بعض أصحاب موسى -مثل حور التي وردت في التوراة- أسماءٌ مصرية؛ ولو صحَّ هذا لكان دليلاً أيضًا على عيش بني إسرائيل في مصر ثم خروجهم منها.

٢. لا تقول التوراة بأن آباء الإسرائيليين كانوا ملوكًا وحكامًا في مصر حتى نقول عنهم أنهم اختلقوا هذه القصة تعظيمًا لشأنهم، وإنما تذكر أنهم عاشوا فيها عبيدًا مضطهدين، فلا نجد سببًا لتلفيق مثل هذه القصة.

٣. تفصيلات التوراة عن هذا الحادث تَصدُق كلها على مصر الأفريقية، منها ذكرُ الفراعنة، وأسماءُ بعض ملوكهم التي أكّدتها الآثار، وأسماءُ بعض الأماكن الواقعة في مصر والتي كانت آثارها قد

اندثرت جغرافيًا بصفة عامة، ولكن الحفريات الحديثة كشفت عن وجودها، وقوانينُ الفراعنة وآدابهم ومخازن الغلال. وقد أكدت الآثار على صدق هذه التفاصيل الواردة في التوراة.

ولنذكر ضمنًا أن القرآن الكريم قد ألقى الضوء على عقيدة المصريين باتصاف ملوكهم بصفات الإله. وقد تأكد هذا الأمر أيضًا باكتشافات الآثار المصرية القديمة.

تؤكد كل هذه الآثار بوجود علاقة عميقة بين إسرائيل ومصر في ذلك الزمن. وأما ما يثار اليوم من شبهات فسببها أن القائلين بها يريدون أن تكون كل هذه التفصيلات متطابقة تمامًا مع ما وجدوه من معلومات من الاكتشافات الأثرية الناقصة أو في كتب التاريخ الناقصة. وهذه مطالبة مخالفة للعقل.

٤. وكذلك يتضح من التاريخ اليوناني القديم أن المصريين كانوا يتحدثون بخروج بني إسرائيل من مصر. ولكن هذه الروايات اليونانية خالية ومشوهة للحقائق أيضًا، كمثل قولها أن بني إسرائيل كانوا أولاد المصريين المصابين بالجذام، عاشوا معزولين عن سائر الناس بسبب مرضهم، وكانوا ينكرون آلهة المصريين، فثاروا على المصريين فطردوهم. وقد ذكر هذه الروايات المؤرخ "أبديرا" المعاصر للإسكندر الأكبر، والمؤرخ "منيثو" من هيلوبوليس (إسرائيل، لأدولف لودز).

ولا شك أن هذه الروايات تخالف ما جاء في التوراة مخالفة تامة، ولكننا نتساءل: لماذا قالها المصريون إن كان بنو إسرائيل لم يعيشوا في مصر ولم يخرجوا منها؟ وأما سبب الاختلاف بين هذه الروايات وما ورد في التوراة فهو أن المصريين كانوا أعداء للإسرائيليين، وهلك ملكهم مقهورًا ذليلاً أمام موسى، فقالوا أن بني إسرائيل كانوا مرضى بالجذام، وطردناهم من بلادنا.

فالتوراة والقرآن يبيّنان أن بني إسرائيل كانوا ذهبوا إلى مصر وخرجوا من هناك بعون الله تعالى ونصرته. وهذا هو الحق الواضح.

وبعد ان تبين أن المراد بكلمة "مصر" هي مصر الأفريقية المعروفة فقد ثبت أن بني إسرائيل خرجوا من مصر قاصدين كنعان. أما التساؤل عما إذا كان طريق خروجهم من الجنوب أو الوسط أو الشمال فهذا لا يحمل أهمية كبيرة من وجهة النظر الدينية. ولكن فيما يتعلق بالبحث المتوافر وظاهرة المَدّ والجَزْر المذكورة في القرآن والتوراة فالأقرب إلى العقل أنهم اتجهوا من عاصمة مصر وقتئذ، وهي عند موقع تل أبي سفيان، بادئين أولاً من الوسط. أي إلى بحيرة التمساح الأقرب إلى كنعان، ولما اعترضت البحيرات طريقهم اتجهوا إلى الجنوب وعبروا إلى سيناء من البحر في وقت الجَزْر قريبًا من مدينة السويس، ومن هناك اتجهوا إلى قادس.

ويتبين من قوله تعالى: [وأغرقنا آل فرعون وأنتم تنظرون] أن المكان الذي عبر منه بنو إسرائيل البحر كان قليل الاتساع، ولولا ذلك ما استطاعوا مشاهدة غرق آل فرعون في وسط البحر من الجانب الآخر.

وقد سبقت الإشارة إلى أن عرض خليج السويس في أقصى شماله يبلغ حوالي ثلثي ميل. وإذا اعتبرنا أن آل فرعون غرقوا في منتصف هذه المسافة مثلاً، فمعنى ذلك أن الإسرائيليين كانوا يشاهدون منظر غرقهم واقفين على بعد ٥٠٠ أو ٦٠٠ متر. ويبدو أن فرعون وبعض حاشيته ما كانوا يعرفون السباحة، أو أن الوقت كان مساءً، وخيّم الظلام، فضلوا الطريق وتخبطوا في المياه ودخلوا المياه العميقة فغرقوا. وحدث نفس الشيء مع نابليون في الواقعة التي ذكرناها من قبل.. فقد حلّ عليهم المساء عندما دخلوا في الطريق اليابس الذي كشفه تراجع الماء وقت الجَزْر، وكانوا لا يزالون يسيرون فيه عندما جاء المدّ. ولما كانت هناك كثير من البرك الصغيرة في الأرض اليابسة اتصل ماء البحر بماء البرك، ولم يستطيعوا أن يحددوا الجهة المقصودة. فخافوا أن يتجهوا إلى المياه العميقة بدلاً من الشاطئ فغرقوا. عندئذ أمر نابليون زملاءه أن يتقدّموا في الاتجاهات الأربعة على شكل علامة "+"، فإذا صادف فريق منهم الماء العميق حذّر رفاقه وارتدّوا في الاتجاه الآخر. وهكذا تلمسوا طريقهم حتى خرجوا إلى الشاطئ. ولما وصل نابليون إلى بر الأمان استلقى على الرمال وقال بطريقة عفوية: لو غرقت اليوم لأثار العالم المسيحي كله ضجة وقال: ها قد غرق فرعون آخر في البحر.

﴿وَإِذْ وَعَدْنَا مُوسَىَ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ثُمَّ اتَّخَذْتُمُ العِجلَ مِن بَعدِهِ وَأَنتُم ظَالِمونَ﴾ (٥٢)

التفسير: تذكر هذه الآية إحسانًا إلهيًا آخر تنكّر له بنو إسرائيل في زمن موسى عليه السلام، ولم يألوا جهدًا في تبديله من إحسان إلى عذاب. أمر الله تعالى موسى أن يخلو للعبادة في جبل كان في طريقهم إلى كنعان، ويتلقى بعض توجيهات منه تعالى. فذهب إلى الجبل. ولكن بني إسرائيل أحسوا بعد أيام أن غيبته طالت عليهم وظنوا أنه مات أو تعرض لمكروه. فصنعوا تمثال عجل من حلي كانت معهم، وقالوا هذا إلهنا، وعكفوا على عبادته. وأخبر الله تعالى موسى بما فعل قومه وأمره أن يسرع إليهم.

وتذكر التوراة هذه الواقعة فتقول: "وقال لموسى: اصعد إلى الرب أنت وهارون وناداب وأبيهوا وسبعون من شيوخ إسرائيل واسجدوا من بعيد. ويتقرب موسى وحده إلى الرب وهم لا يتقربون. وأما الشعب فلا يصعد معهم.... وأما الشيوخ فقال موسى لهم: اجلسوا لنا ههنا حتى نرجع إليكم. وهُوَذا هارون وحورُ معكم، فمن كان صاحب دعوى فليتقدم إليهما.. ودخل موسى في وسط السحاب وصعد إلى الجبل. وكان موسى في الجبل أربعين نهارًا وأربعين ليلة" (خروج: ٢٤).

وجاء في موضع آخر: "ولما رأى الشعب أن موسى أبطأ في النزول من الجبل اجتمع الشعب على هارون وقالوا له: قم اصنع لنا آلهة تسير أمامنا لأن هذا موسى الرجل الذي أصعدنا من أرض مصر لا نعلم ماذا أصابه. فقال لهم هارون: انزعوا أقراط الذهب التي في آذان نسائكم وبنيكم وبناتكم وأتوني

بها. فنزع كل الشعب أقراط الذهب التي في آذانهم وأتوا بها إلى هارون. فأخذ ذلك من أيديهم وصوَّره بالإزميل وصنعه عجلاً مسبوكًا. فقالوا: هذه آلهتكم يا إسرائيل التي أصعدتكم من أرض مصر. فلما نظر هارون بنى مذبحًا أمامه، ونادى هارون وقال: غدًا عيد الرب، فبكروا في الغد وأصعدوا محروقات وقدّموا ذبائح سلامة. وجلس الشعب للأكل والشرب ثم قاموا للعيد" (خروج ٣٢: ١ إلى ٦).

يتضح من هذه العبارات أن التوراة تروي أن الله تعالى أمر موسى أن يقضي بعض الأيام في الجبل. وقبل أن يصعد موسى إلى الجبل أمر بني إسرائيل أن يطيعوا هارون وحور فترة غيابه. وبعد أيام ظن بنو إسرائيل أن موسى قد مات فلم يرجع إليهم، وطلبوا من هارون أن يصنع لهم صنمًا. فلبى طلبهم وجمع منهم حليهم وصنع لهم عجلاً. فقدموا له القرابين والأضاحي بمساعدة من هارون. ولقد ذكر القرآن هذا الحادث في قوله تعالى: [وواعدنا موسى ثلاثين ليلة وأتممناها بعشرٍ فتمّ ميقاتُ ربه أربعين ليلة] (سورة الأعراف:١٤٣). ثم أضاف: [واتخذ قومُ موسى من بعده حُليهم عجلاً جسدًا له خُوارٌ. ألم يروا أنه لا يكلمهم ولا يهديهم سبيلاً. اتخذوه وكانوا ظالمين] (الأعراف:١٤٩). وقال أيضًا: ﴿ولقد قال لهم هارون من قبل يا قوم إنما فُتنتم به وإن ربكم الرحمن فاتبعوني وأطيعوا أمري ۞ قالوا لن نبرح عليه عاكفين حتى يرجع إلينا موسى﴾(سورة طه:٩١و٩٢). وقد وجّه هارون عليه السلام أنظار بني إسرائيل بقوله: ﴿وإن ربكم الرحمن﴾ إلى أن الله تعالى برحمته الواسعة ينزل كلامه لهداية الناس.. ولكن أي هدى يعطيكم هذا العجل؟

هناك فرق كبير بين بيان التوراة والقرآن الكريم؛ فأولاً يبين القرآن سبب قلق بني إسرائيل، ويذكر أن موسى كان قد أُمر في البداية بالخلوة على الجبل لمدة ثلاثين ليلة، ولا بد أنه يكون قد أخبر قومه بهذه المدة، ثم زاد الله تعالى عشر ليالٍ أخرى تكميلاً للإحسان إلى موسى، إذ إن عدد الأربعين يدل على الكمال في العالم الروحاني، وبسبب هذه الزيادة في الليالي أصاب قومه القلق، ولعل بعضهم ظن أنه قد مات، أو خذلهم هروبًا من تحمّل مشاقّ السفر ومخاوف الطريق. ونظرًا لحداثة عهدهم بالإيمان تأثروا بمن حولهم من الأقوام الوثنية وصنعوا صنمًا يعبدونه. ولكن التوراة لا تبين سبب ما أصابهم من قلق.

وثانيًا: يصرح القرآن أن هارون عليه السلام لم يقع في هذا الشرك، وإنما هم الذين ارتكبوه، وحاول هارون بكل جهد منعهم منه. أما التوراة فهي لا تكتفي بتوريط هارون النبي في هذا العمل الوثني، بل تقول إنه قَبِلَ طلبهم بلا تردد، و لم يصنع العجل لهم فحسب، وإنما حرّضهم ودعاهم إلى عبادته. فلا حول ولا قوة إلا بالله! إن رواية التوراة هذه مخالفة للمنطق بحيث لا يمكن أن يقبلها أي عاقل ولا للحظة واحدة..لأن معنى ما تقوله التوراة أن النبي الذي تعود على سماع كلام الله تعالى ألّه تمثالاً بلا حياة، لا يضر ولا ينفع،

وعبده بنفسه وحث قومه على عبادته! ومن يقبل مثل هذا الهراء السخيف سوى قساوسة النصارى وأحبار اليهود.. الذين ختموا بالرصاص على آذان عقولهم لتصديق كل ما ورد في أسفارهم من رطب ويابس؟! ويبدو أن السامري الذي صنع هذا التمثال كان مشركًا بقلبه، وكان حريصًا على أن يرتد بنو إسرائيل إلى حمأة الشرك، ولعله كان صائغًا فصاغ بنفسه أو مستعينًا بمن على شاكلته من الصائغين تمثالاً عاديًا.

ويعترض البعض بأن الله تعالى واعد موسى ثلاثين ليلة في البداية ثم جعلها أربعين، وهذا إخلاف للوعد. ومثال هذا الاعتراض كأن يَعِدك شخص بأن يعطيك ثلاثين درهمًا فيزيدها إلى أربعين. فهل هذا إخلاف للوعد؟ إن كلام الله تعالى نعمة عظمة، وقد أتم هذه النعمة بأربعين ليلة بدلاً من ثلاثين. وإتمام النعمة لا يعد إخلافًا للوعد، بل هو إحسان وإنعام.

﴿ ثُمَّ عَفَوْنَا عَنْكُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ (٥٣)

شرح الكلمات:

ثُم: راجع شرح الكلمات للآية رقم ٢٩.

عفونا: عفا عنه ولَه ذنبه وعفا عن ذنبه: صفح عنه وترك عقوبته وهو يستحقها وأعرض عن مؤاخذته. عفا الله عن فلان: محا ذنوبه. عفا عن الشيء: أمسك عنه وتنزه عن طلبه (الأقرب).

تشكرون: شكره وشكر له: أثنى عليه بما أولاه من المعروف (الأقرب).

التفسير: يتضح من التوراة أن الله غضب على بني إسرائيل عندما اتخذوا العجل إلهًا وقال لموسى: (رأيت هذا الشعب وإذا هو شعب صلب الرقبة. فالآن اتركني ليحمى غضبي عليهم وأُفْنيهم) (خروج٣٢: ١٠)..وتقول أيضًا "فتضرع موسى أمام الرب...فندم الرب على الشر الذي قال أنه يفعله بشعبه" (المرجع السابق١١-١٤) أي لم يعاقبهم بل عفا عنهم.

قوله تعالى: [ثم عفونا عنكم] يعني أن عفوه تعالى كان عن عقوبة استحقوها كشعب، ولكن كبار المجرمين نالوا العقاب الفردي ولم يعف عنهم. فالجرائم القومية على شقين: شق يتعلق بالقوم ككل، وشق يتعلق بأفراد من القوم. هناك أناس يقومون بالدور الأكبر في الجرائم القومية. وهناك من يشارك بنصيب أقل. ومنهم من لا يشارك فيها بجهده وإن كان مع المجرمين بقلبه ولسانه، وهناك من لا يشترك بلسانه ولكن قلبه معهم. ثم هناك من ينساقون للمشاركة في الجريمة وقلوبهم غير مطمئنة إليها.. وإنما يشتركون فيها عن جُبن. والبعض لا يشتركون في العمل ولكنهم يؤيدونه بلسانهم فقط وقلوبهم منكرة

له. ثم منهم من لا يشترك فيه لا بالعمل ولا باللسان ولا بالقلب.. ولكنهم لا يقاومونه ويسكتون عليه. وهناك أيضًا من يكتفون بإبداء عدم الرضا عن الجريمة بلسانهم دون مقاومة جادة. كل هؤلاء يكونون شركاء في العقوبة القومية، ولكن عند العقوبة الفردية يُعاقب كل شخص بحسب دوره. ويشير قوله: [عفونا عنكم] إلى رفع العقوبة القومية عنهم نتيجة دعاء موسى عليه السلام، ولا يشير إلى رفع العقوبات الفردية التي استحقها كبار المجرمين، إذ يتبين بعد آيتين أنهم عوقبوا. قوله تعالى :[لعلكم تشكرون] يعني أننا أسدينا إليكم هذا الفضل لكي تقدّروا رحمتنا الواسعة حق قدرها فتنتفعوا بها على الدوام.

﴿وَإِذْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَالْفُرْقَانَ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ (٥٤)

شرح الكلمات:

الفرقان: فَرَق بينهما فُرقانًا: فصل أبعاضهما. فَرَق لفلان أمرٌ أو رأيٌ: تبيّن واتضح. فَرق له عن الشيء: بيَّنه. والفرقان: القرآن الكريم؛ كل ما فُرق به بين الحق والباطل؛ النصر؛ البرهان؛ الصبح أو السحر؛ انفراق البحر (أي انشقاقه)؛ التوراة؛ وقعة بدر (الأقرب). المعنى الأصلي للفرقان هو كل ما فُرِّقَ به بين الحق والباطل، ولكن أهل اللغة ذكروا القرآن الكريم والتوراة وانفراق البحر ووقعة بدر كمعانٍ للفرقان على وجه الاستنباط، إذ ليست معاني لغوية للكلمة. لقد أوردوها لأن كلاً منها ميزت بين الحق والباطل.

تهتدون: اهتدى الفرسُ الخيلَ: سار في أوائلها (الأقرب). فمعنى تهتدون أي لكي تسبقوا الناس وتكونوا أئمة لهم (راجع أيضًا شرح الكلمات في سورة الفاتحة).

التفسير: ذُكر ضمنًا في هذه الآية ما أُعطي موسى في الأربعين ليلة: كنا نعمل كل هذا لهداية بني إسرائيل ولازدهارهم، ولكنهم اشتغلوا بعبادة العجل، معرضين عن إله حي محسن. هذا التباين بين فعل الله تعالى وفعل بني إسرائيل يبرز جريمتهم بجلاء بحيث من المحال ألاَّ يتأثر منه أي إنسان عاقل.

قوله تعالى:[لعلكم تهتدون] إشارة إلى أننا كنا نعمل لهديكم، وكنتم تعملون لضلالكم. فالكتاب والفرقان اللذان أُوتيهما موسى على الجبل كان الغرض منهما أن يتحول الإيمان الإجمالي لدى بني إسرائيل إلى إيمان تفصيلي، ولكنهم أضاعوا في تلك الإيام ما كان بهم من إيمان ووقعوا في الشرك.

سيدنا موسى عليه السلام

ورد اسم موسى أول مرة في القرآن الكريم في هذه الآية، لذلك يجمل بنا هنا أن نذكر أمورًا عنه. يتبين من القرآن الكريم أن موسى كان من بني إسرائيل، وكان الحلقة الأولى من سلسلة النبوة في بني إسرائيل

التي كان عيسى عليه السلام الحلقة الأخيرة منها. جاء في القرآن أن الملأ من قوم فرعون قالوا له: [أتذر موسى وقومه ليفسدوا في الأرض] (الأعراف:١٢٨). وعلاوة على ذلك ورد في القرآن الكريم في أكثر من عشرة مواضع أن بني إسرائيل هم قوم موسى. ويمكن أن يكون المراد من القوم هنا هم المؤمنون به، ولكن القرآن يبين أن موسى لم يبعث إلاَّ إلى بني إسرائيل، فلا بد أن يكون المؤمنون به بني إسرائيل أنفسهم إلاَّ ما شذَّ وندر. ثم هناك آية أخرى توضح تمامًا معنى القوم.. قال الله تعالى: [فما آمن لموسى إلا ذرية من قومه] (يونس:٨٤). فالقوم هنا هم بنو إسرائيل في كل حال. وهناك من الباحثين الجدد الذين يحاولون إثبات أن موسى لم يكن من بني إسرائيل بل كان من أصل مصري، ويستدلون على ذلك بما يلي:

الأول: موسى اسم مصري، فيقال باللغة المصرية (مَوْسى) للطفل. يقول برستود (Breasted): "توجد لدى المصريين القدامى أسماء مثل (آمُن موسى) و(بتاموسى) ومعناهما: طفل آمون وطفل بتا. وآمون وبتا إلهان من آلهة المصريين" (كتاب فجر الضمير Dawn of Conscience)

ويقول بروفسور سيجموند فرويد S.Freud: "وعلاوة على هذه الأسماء هناك أسماء مشابهة لها للملوك المصريين مثل: آه موسى، تُت موسى، رع موسى" (موسى والتوحيدMoses&Monotheism). و(رع موسى) هو الذي تذكره التوراة باسم (رعمسيس). و(رع) هو إله الشمس عند المصريين. فمعنى (رع موسى) الطفل الذي وهبه إله الشمس. ويقول هؤلاء أن الأسماء التي مع كلمة موسى سقطت وبقي اسم (موسى) فقط.

الثاني: ويدّعون أيضًا أن التوحيد لم يكن معروفًا في القبائل الكنعانية، وإنما أسس عقيدةَ التوحيد أحدُ ملوك مصر اسمه (أمنحتب الرابع). كان يعبد إلهًا يسميه (أتون) وأمر الناس بعبادته. وأُطلق اسم أتون في الكتب القديمة على إله الشمس، ويقال إنه كان هناك في هليوبوليس معبد كبير لإله الشمس يزاولون فيه عبادته. وكان هناك كثير من العباد الذين يحملون أفكارًا فلسفية فبدأوا بالتدريج يسبغون على إله الشمس صفة أخلاقية بدلاً من صفته المادية. ثم خلع عليه أمنحتب صبغة الألوهية وروّج له في مصر. وينقلون عنه قوله: أيها الإله الوحيد الفريد..لا إله سواك. وقد ذكر ذلك أيضًا (برستد) في كتابه (تاريخ مصر History of Egypt) ويستدلون من قوله هذا على أنه كان مؤسس فكرة التوحيد، وأشاعها بالإكراه في البلاد، وأمر بهدم معابد الآلهة الأخرى. ولما كان أمنحتب اسمًا وثنيًا استبدله باسم (أخناتون) وبذلك نسب نفسه إلى الإله الواحد (أتون).

الثالث: روّج موسى في بني إسرائيل عادة الختان وهي عادة مصرية، فثبت بذلك أن موسى كان مصريًا.

الرابع: لا يوجد في تعاليم الملك المصري إخناتون ذكر البعث بعد الموت، وكذلك لا يوجد في تعاليم موسى ذكره.
الخامس: كان المصريون يكرهون الخنزير، وفي تعاليم موسى أيضًا كراهية الخنزير.
السادس: ورد عن موسى عليه السلام أنه كان لا يجيد النطق للتعبير عن أفكاره، وهذا يدل على كونه مصري الأصل و لم يكن يجيد الحديث بالعبرانية.
بهذه الأفكار يستدلون على أن موسى كان مصري الأصل، وأنه كان من أتباع فكر أمنحتب. ويقولون: عادت الديانة المصرية الوثنية بعد موت (إخناتون) وحل الشرك محل التوحيد. وعندما لم ير موسى إمكانية نشر دين إخناتون الداعي إلى التوحيد بين المصريين اتجه إلى قوم بني إسرائيل غير المصريين الذين كانوا هدفًا دائمًا لاضطهادهم. وكان من السهل عليه صرفهم عن العقائد المصرية بسبب كراهيتهم لهؤلاء. وتقبل بنو إسرائيل دينه بسرعة، وعندما لم يعد لهم مكان في مصر بسبب اعتناقهم الدين الموسوي هاجروا منها مع موسى إلى كنعان.
والرد على هذه الأدلة بإيجاز:
دليلهم الأول:
قولهم إن موسى اسم مصري فلا بد وأن يكون سيدنا موسى مصري الأصل.. قول سخيف. كان بنو إسرائيل يعيشون في مصر عبيدًا محكومين، لذلك كان لا بد أن يتأثروا من حضارة المصريين وعاداتهم. وهذه ظاهرة مألوفة في الشعوب التي استُعمرت. لقد حكم الإنجليز بلادًا كثيرة، فتسمى العديد من أهلها بأسمائهم مثل إدوارد وجورج وفكتوريا وغيرها. فهل يحق لمؤرخ أن يستدل بهذه الأسماء أن هؤلاء من أصل إنجليزي. يجب أن يقوم الاستدلال على منطق عميق ودراسة واعية للأحوال بنظرة واعية. وإني لأتعجب كيف يميل هؤلاء المؤرخون الغربيون إلى استنباط هذه النتائج بسطحية وعجلة هكذا. هناك آلاف الأمثلة كهذه الأسماء التي أخذتها الشعوب المغلوبة من المستعمرين، وإذا كان لا يحق لهم الحكم على قوميتهم من مجرد الأسماء فكيف يحق لهم استنادًا إلى اسم موسى الجزم بأنه كان مصريًا. إذا كان اسم (موسى) اسمًا مصريًا فقد سماه أبواه أو غيرهما بذلك تأثرًا بالمصريين...فأي غرابة في هذا! وخاصة أن القرآن والتوراة يذكران أن أم موسى وضعت وليدها وهو صغير في صندوق بأمر من الله تعالى وألقته في النهر خوفًا من اضطهاد فرعون، فعثرت عليه امرأة من الأسرة الملكية الفرعونية وقامت بتربيته. ولما كانوا لا يعرفون له اسمًا فليس ببعيد أنهم سموه باسم مصري ودعوه موسى. ولو افترضنا في ضوء هذا الحادث بأن موسى اسم مصري فلا يحق لنا أيضًا الاستدلال على أن موسى كان مصري الأصل. ومن ثم فاستنتاجهم هذا استنتاج واه وضعيف للغاية لا يؤبه له.

تقول التوراة عن هذا الحادث: (فحبلت المرأة وولدت ابنًا. ولما رأته أنه حسن خبأته ثلاثة أشهر. ولما لم يمكنها أن تخبئه بعد أخذت له سفطًا من البردي وطلته بالحُمر والزفت ، ووضعت الولد فيه. ووضعته بين الحَلفاء على حافة النهر. ووقفت أخته من بعيد لتعرف ماذا يُفعل به. فنزلت ابنه فرعون إلى النهر لتغتسل، وكانت جواريها ماشيات على جانب النهر. فرأت السفط بين الحَلْفاء، فأرسلت أَمَتها وأخذته. ولما فتحته رأت الولد وإذا صبي يبكي. فرّقت له وقالت: هذا من أولاد العبرانيين. فقالت أخته لابنة فرعون: هل أذهب وأدعو لك امرأة مرضعة من العبرانيين لترضع لك الولد؟ فقالت لها ابنة فرعون: اذهبي. فذهبت الفتاة ودعت أم الولد. فقالت لها ابنة فرعون: اذهبي بهذا الولد وأَرضعيه لي وأنا أعطي أجرتك. فأخذت المرأة الولد وأرضعته. ولما كبر الولد جاءت به إلى ابنة فرعون، فصار لها ابنًا، ودعت اسمه موسى، وقالت إني انتشله من الماء (خروج٢:٢ إلى ١٠).

وقد ذكر القرآن هذا الحادث في قوله تعالى: [وأوحينا إلى أم موسى أن أَرْضعيه فإذا خِفْتِ عَليهِ فألقيه في اليم ولا تخافي ولا تحزني إنّا رادّوه إليك وجاعلوه من المرسلين۝ فالتقطه آل فرعون ليكون لهم عدوًا وحَزَنا. إن فرعون وهامان وجنودهما كانوا خاطئين۝ وقالت امرأة فرعون قرةُ عين لي ولك. لا تقتلوه عسى أن ينفعنا أو نتخذه ولدًا. وهم لا يشعرون ۝](القصص:٨إلى١٠). ويشار إلى حادثة الإلقاء في النهر في موضع آخر حيث يقول:﴿أنِ اقْذِفيه في التابوت فاقْذِفيه في اليم﴾(طه:٤٠).

يتبين مما ورد في القرآن والتوراة أن امرأة من بيت فرعون أخذت موسى طفلاً رضيعًا وربته. وتقول التوراة أن هذه المرأة كانت بنت فرعون، وهي التي سمّته. وإذا كانت هي التي سمته فمن الطبيعي أن يكون اسمًا مصريًا.

ومع كل ذلك فلا أرى أنهم قدموا دليلاً كافيًا على كون (موسى) اسمًا مصري الأصل، لا عبرانيًا. فهؤلاء يستدلون بأسماء مصرية كانت تتكون من جزئين أو أكثر أحدهما (موسى)، ولكننا نرى علماء الألسنة قد اختلفوا في ذلك، وليس منهم واحد ذكر بأن نُطْق الكلمة المصرية هو كنطق (موسى) بالعبرانية، وإنما قرأوها (مَوسِى) أو(مَيْس) أو(مَيْسُو) ومعناها الطفل، وتستخدم منفردة أو متصلة باسم آخر. فقد ورد في الأسماء الملكية المصرية التالية: (تحتمُس، أحمِس، رعْميُسو).. وكما هو ظاهر، هناك بون شاسع بين نطق هذه الأسماء ونطق كلمة موسى.

ذلك بالإضافة إلى أن ابنة فرعون، بحسب قول التوراة، نادت الطفل باسم (موسى) قائلة: لأني انتشلته من الماء. ولكننا لا نجد في اللغة المصرية كلمة مثل كلمة موسى تعني معنى الانتشال من الماء. نعم هناك في العبرانية كلمة تعطي معنى مشابهًا لذلك مثل كلمة (موشي) التي تتركب من مقطعين: (مو) ومعناه ماء، (شي) ومعناه شيء. والمعروف أن العبرانية والعربية لغتان متشابهتان، بل إن العبرانية أصلها العربية.

فيكون معنى كلمة (موشي) شيء مائي، أي الولد الذي انتشِل من الماء، وانقلبت هذه الكلمة في العربية إلى موسى، كما هو الحال في كلمتي (عيسى وإسماعيل) وأصلهما العبري (يشوع ويشمائيل). وهذه قرينة قوية على أنَّ موسى عبراني الأصل، وأن رواية الكتاب المقدس في هذا الصدد ضعيفة.

ثم إنه ليس مما يتفق مع العقل أن يمكث الطفل كل هذه السنين عند أمه ثم لا تسميه باسم من عندها. أرى أن أم موسى عندما أخذته من امرأة فرعون للرضاعة سمَّته (موشي) نظرًا لنجاته من الغرق في الماء.. لِيُذكِّرها هذا الاسم بالمعجزة الإلهية التي وقعت لها. ويبدو أنها حينما عادت به إلى بيت فرعون أخبرتهم باسمه هذا وبينت لهم سبب هذه التسمية، فأعجبهم قولها ووافقوا عليه. وهذا هو البيان الأقرب إلى الواقع والصواب، وخاصة لأنه ليس في اللغة المصرية كلمة مثل موشي بمعنى (ما انتُشل من الماء).

ثم إذا ألقينا نظرة على اللغة العربية بخصوص هذا الاسم وجدنا أنه يعني بالعربية (المقطوع) إيماءً إلى أنه فُصل من أسرته وتربى عند آل فرعون. كما أن لفظ "موشى" يعني في العربية الشيء المنتشل، حيث يقال: أوشى الشيءَ: استخرجه. واسم الفاعل منه هو "مُوشي"، واسم المفعول هو "مُوشَى"، فالمراد من موشى: المنتشَل. وهذا المعنى يطابق قول بنت فرعون الوارد في التوراة (لأنني انتشلته من الماء). فعندي أن لفظ (موسى) كان في الأصل (مُوشَى) وينطق في العبرانية (مَوْشَى)، ومعناه الأصلي (من انتُشل أو استُخرج).

والعجيب أن هؤلاء الباحثين المعاصرين يريدون إثبات أن بني إسرائيل لم يدخلوا مصر ولم يخرجوا منها من ناحية، ومن ناحية أخرى يقولون: إن بني إسرائيل ذهبوا إلى مصر وأن كبيرهم موسى كان مصري الأصل وأن دينه كان دينًا مصريًا. بهذا التعارض يمكن أن يدرك الإنسان ضعف أساس أقوالهم. الحق أن هؤلاء القوم قاموا فعلاً ببعض التحقيقات الجيدة، ولكن أفسدهم شوقُهم إلى تعميم النتائج التي يتوصلون إليها في مسألة معينة على المسائل الأخرى كلها. وهذا يوقعهم في العثار. ومثلهم كمثل الذي يصنع إناء من الطين ثم يتباهى بأنه صنع العالم كله! إن صنع الإناء عمل جيد، ولكن لا يعني هذا أنه صار بذلك صانعًا للعالم كله. ولو لم يقع هؤلاء في سوء الفهم هذا لكان لتحقيقاتهم وزن أكبر كثيرًا.

دليلهم الثاني:

قالوا: إن فكرة التوحيد مصرية الأصل لذا فموسى كان مصريًا. ونرد على ذلك بأنه لا يمكن القول بأن فكرة معينة لا تنشأ إلاَّ في ذهن شعب واحد فقط، وإلاَّ فلا بد من التسليم بأن كل هذا الرقي العلمي في العالم لم ينشأ سوى في خمسة رؤوس أو ستة من الناس، وأن سائر الخلق قد أخذوا عنهم. وهذا باطل بالبداهة. هنالك أشخاص كثيرون في شتى مناطق العالم قاموا في صورة منفردة، بالتفكر فيما حولهم من أحوال وأشياء، وتوصلوا إلى نتائج مشابهة. ويحصل هذا التوارد بين أفكار مئات الناس في مختلف

الأقطار. الفكرة الأساسية واحدة بشيء من التنوع الذي يحصل بسبب تعدد وتنوع البيئات في مختلف الأمصار. وكذلك مسألة التوحيد لا يمكن القول بأنها نشأت في قلوب أهل قطر واحد. فالمُشاهد عمليًا أن كثيرًا من المسائل العملية قد بُحثت في وقت واحد وفي بلاد مختلفة دون أن يرى أحد بما يقوم به الآخرون ووصلوا إلى نتائج متشابهة؛ و لم يدعي أحد أن هناك سرقة علمية، ولكن قالوا أنه توارد أفكار. لذا لا يصح القول بأنّ فكرة التوحيد نشأت عند المصريين ولا يمكن أن تنشأ عند غيرهم، وأن موسى مصري لأنه نشر التوحيد.

ثم لو سلمنا جدلاً بصحة قولهم، فهل من السنن الكونية أن الفكرة المصرية لا ينشرها إلاّ المصري؟ هل من المحال أن يقبلها إسرائيلي وينشرها في قومه؟

هذا الرد من حيث النقد العلمي المحض، وإلاَّ فإن موسى لم يذكر قط أنه مخترع فكرة التوحيد، كما لا يقول بذلك الإسلام. فكل الأديان متفقة على أن الأنبياء لا ينشرون أفكارهم وإنما ينشرون وحي الله تعالى، وأن فكرة التوحيد هي من تعليم الله للناس بالوحي منذ بداية العالم. إذا كان الله تعالى واحدًا، و لم يزل منذ البداية يترل وحيه، فمن البديهي أنه سيقول لكل نبي بأنه واحد، ومن المحال أن يوحي لأنبيائه السابقين بتعدد الآلهة، ثم يقول لإخناتون أنه واحد. لقد انخدع هؤلاء بسبب عدم فهمهم للوحي وحقيقته. إن الدين إنما يتأسس على الوحي، وإذا لم يكن قائمًا على الوحي فلن يكون إلا وسوسة نفس وهراء، وتكون شخصية موسى لا قيمة لها سواء كانت من المصريين أو بني إسرائيل أو غيرهم. كانت عظمة موسى وأهميته بما نزل عليه من وحي إلهي. وإذا سلّمنا بالوحي الإلهي فلا بد من الاعتراف أن التوحيد كان العنصر الأعظم من تعاليم جميع الأنبياء. وما كان الله تعالى لينتظر ظهور أمنحتب (إخناتون) لإظهار وجوده ووحدانيته سبحانه وتعالى.

نجد القرآن الكريم يقول لأهل مكة إن جدكم إبراهيم كان موحدًا وأنه كان قبل موسى بلا شك. ورغم أن أهل مكة كانوا مشركين، لكنهم لم يجرؤوا على إنكار ما يقوله القرآن، حيث لا نجد واقعة واحدة في التاريخ أنهم قالوا –ولو كذبا– أن إبراهيم كان مشركًا مثلهم. وهذه شهادة تاريخية بأن قريشًا الذين كانوا يعيشون بعيدًا عن بني إسرائيل وكانوا يعتبرون أنفسهم من نسل إبراهيم، يقرّون بإن إبراهيم عليه السلام كان موحدًا. فإذا كان موسى كما يقولون قد تعلم التوحيد من أمنحتب المصري فمن علَّم إبراهيم التوحيد؟ فادعاؤهم ليس صحيحا إطلاقًا، بل الواقع أن التاريخ يخبرنا بأن فكرة التوحيد كانت موجودة منذ الزمن القديم، لأن الوحي الإلهي قد حفظ بذرة التوحيد حية في كل أنحاء الدنيا. فليس الشرك هو الذي ولّد التوحيد، وإنما جاء الشرك بعد التوحيد في زمن الضلال والانحطاط.

دليلهم الثالث:

قالوا إن عادة الختان مصرية.. ولما كان موسى يُعلِّم بني إسرائيل الختان فثبت أنه كان مصريًا.

هذا الاستدلال خاطئ. حتى لو افترضنا أن الختان كان من عادات المصريين، أفلا يمكن أن نقول إن بني إسرائيل قد أخذوه تأثرًا بالبيئة المصرية أيام إقامتهم الطويلة في مصر؟

ثم إنه من الخطأ القول بأن الختان كان شائعًا عند المصريين وحدهم. تقول التوراة إن الله تعالى قد شرع الختان لإبراهيم الذي مضى قبل موسى ببضعة قرون. فقام بختان نفسه وأولاده وأوصاهم به. والدليل على صدق ما جاء في التوراة بهذا الصدد هو أن الختان كان موجودًا لدى العرب الذين لم يكونوا على علاقات اجتماعية مع بني إسرائيل، والذين لم يذهبوا إلى مصر قط، والذين يقولون إن هذه العادة جاءتهم عن طريق جدهم إبراهيم وابنه إسماعيل. ويمكن أن يقول هؤلاء الباحثون العصريون أن موسى المصري علَّم بني إسرائيل الختان، ثم نسب هؤلاء هذه العادة إلى جدهم إبراهيم، ولكن ماذا سيقولون عن العرب الذين لم يكن لهم بعادات بني إسرائيل اهتمام ولا يربطهم بموسى تعاطف، بل كانوا يشعرون بالنفور نحو بني إسرائيل لكونهم إخوة من أُمَّيْن ضُرتين. فوجود الختان فيهم وعَزْوُهم إياه إلى إبراهيم وإسماعيل (عليهما السلام) يدل على أن هذه العادة جاءتهم عن طريقهما.

والختان في العرب لم يزل موجودًا منذ زمن طويل، وقد شهد على ذلك المؤرخ (فلاس تارجى ٣٤٢ ق.م) (الموسوعة البريطانية). إلاّ أن الشهادة الكبرى هي الشهادة القومية للعرب سواء كانوا مسلمين أو غير مسلمين.

كما تقول الموسوعة اليهودية إن الختان كان ولا يزال موجودًا في أمم أخرى علاوة على المسلمين واليهود، مثل نصارى الحبشة والقبائل الإفريقية الوحشية التي عددُ مَن يختتن منها أكثر ممن لا يختتن. وكذلك كانت قبائل وسط أستراليا القديمة تقوم بالختان، ولم يكن يربطها بمصر صلة. (Tribes of Central Australia، By Spencer & Gellen)

كذلك كان الختان موجودًا في سكان القارة الأمريكية كلها (الموسوعة اليهودية). وإذا كان كل هؤلاء الشعوب يختتنون، فلماذا لا نقبل بوجود الختان في الإسرائيليين قبل موسى عليه السلام.

إن أقدم ثبوت للختان في مصر هو في الجثة المحنطة للملك المصري (أمننحب Amen-en-heb، ١٦١٤:١٥٥٥ ق.م) (الموسوعة اليهودية)، وهو زمن ما بعد هجرة يوسف عليه السلام وأسرته إلى مصر. وهذا يثبت أن أقدم ثبوت للختان في مصر كان قبل موسى بقرنين، ويمكن أن نستنتج من هذا بسهولة بأن يوسف كان يحظى بقرب خاص لدى الملوك المصريين، وبتوجيه منه أخذ الملوك وحاشيتهم من الأمراء وغيرهم بالختان. ويرى علماء الآثار المصرية أن الختان كان شائعًا على العموم بين الملوك وكهنة المعابد.

دليلهم الرابع:

دين أمنحتب لا يذكر البعث بعد الموت وكذلك دين موسى، فثبت أن موسى مصري. في هذا الدليل عيبان كبيران: الأول: إن دين أمنحتب ليس معروفًا كله. فلم يترك كتابًا ولا جماعة من أتباعه، وإذا كان ترك كتابًا فليس موجودًا. فكيف يُجزم بأن دينه لم يتضمن هذا التعليم؟

والثاني: لم يثبت هؤلاء الباحثون عدم ذكر البعث بعد الموت في تعاليم موسى، مع أن تعاليمه والأنبياء التابعين له تتضمن ذكر الحياة بعد الموت. ورد في التوراة أن الله تعالى قال لموسى: (مُت في الجبل الذي تصعد إليه، وانضمَّ إلى قومك كما مات هارون أخوك في جبل هورضُم إلى قومه) (تثنية ٣٢:٥٠). وكذلك يقول داود لربه: (نجِّ نفسي من الشرير بسيفك، من الناس بيدك، يا رب، من أهل الدنيا. نصيبهم في حياتهم. بذخائرك تملأ بطونهم. يشبعون أولادًا ويتركون فضالتهم لأطفالهم. أما أنا فبالبر أنظر وجهك. أشبع إذا استيقظت بشَبَهك) (مزامير ١٧:١٣ إلى ١٥).

لا شك أن التوراة لم تذكر مسألة البعث بعد الموت بالقوة التي ذكرها دين زرادشت أو دين الإسلام أو دين الهندوس، ولكن هذا يرجع إلى ميل اليهود إلى الدنيا ميلاً شديدًا. فعندما اندرست التوراة بحوادث الزمن وجمعها اليهود مرة أخرى وجهوا كل اهتمامهم إلى جمع الأنباء التي تتعلق بالازدهار الدنيوي، ولم يبالوا بجمع أمور خارجة عن اهتمامهم هذا. فاختفت من كتبهم أشياء كثيرة منها مسألة البعث بعد الموت أيضًا، ومع ذلك يوجد ذكره في التوراة والأسفار النبوية الأخرى كما أسلفت.

دليلهم الخامس:

إن الخنزير حرام عند بني إسرائيل وكذلك الحال عند المصريين.

هذا الاستدلال ناتج عن عدم العلم. ليس صحيحًا أن المصريين كانوا يحرمون أكل الخنزير، وكل ما نعرفه من التاريخ المصري القديم أنهم كانوا لا يأكلون لحمه كثيرًا، ولكن ليس هناك دليل على تحريمه عندهم (موسوعة الكتاب المقدس). بل إن المصريين كانوا يربّون الخنازير. فورد أن (رِني) الكاهن في معبد (إلكاب) كان في حظائره ثلاثمائة خنزير. ويقول (هيرودتس) أن المصريين كانوا يقدّمون قرابين الخنازير باسم الإلهين (سالينيSalene)، (ديونيسسDionysus) أو (أوزريس Osiris). وكذلك ذكر أنه كان على مقبرة (باهيرى Paheri) - الملك المصري من الأسرة الثامنة عشر- رسومات خنازير. (موسوعة الكتاب المقدس).

وكذلك قال البورفسور (أدولف لودز Adolphe Lodz) الأستاذ بجامعة السوربون في باريس: (كان المصريون لا يأكلون لحم الخنزير عادة، ولكنهم في الليلة الرابعة عشرة من شهور معينة كانوا

يقدمون قرابين الخنزير في معابد (ساليني وديونيسس). وكان الكهنة يأكلون لحمه) (إسرائيل للبروفسور لودز).

كذلك ورد في موسوعة الكتاب المقدس أن السكان في آسيا الصغرى واليونان وإيطاليا كانوا يعظمون الخنزير تعظيمًا خاصًا. وكذلك يقول بروفسور لودز: (كان الخنزير حيوانًا مقدسًا لدى الكثير من جيران بني إسرائيل، وكانوا يظنون أنه مقدس عند الرب. وكان أيضًا مقدسًا عند أهل بابل والسوريين حتى سمّى هؤلاء شهر تموز خَنزيرو) (المرجع السابق).

فلست وحدي الذي يرى أن الخنزير كان يلقى تقديرًا عند المصريين القدامى، بل تؤكد هذه المراجع أيضًا أنهم كانوا يتجنّبون أكل الخنزير لا عن كراهة بل تقديسًا له. أما اليهود فكانوا يكرهونه باعتباره نجسًا كما تذكر التوراة. فحرمة الخنزير عند المصريين وبني إسرائيل لا تدل على كون موسى مصريًا.

دليلهم السادس:

إن موسى لم يكن يجيد النطق بلسان بني إسرائيل لأنه كان مصري الأصل.

وفيما يتعلق بعدم طلاقته فهذا صحيح وتقره التوراة والقرآن. قالت التوراة: (فالآن هلم فأرسلك إلى فرعون فتخرج شعبي بني إسرائيل من مصر. فقال موسى لله، من أنا حتى أذهب إلى فرعون حتى أخرج بني إسرائيل من مصر) (خروج٣: ١٠و١١). ثم بعد بعض توجيهات إلهية إلى موسى: (قال موسى للرب: استَمِعْ أيها السيد: لست أنا صاحب كلام منذ أمس ولا أول من أمس ولا من حين كلمت عبدك، بل أنا ثقيل الفم واللسان. فقال له الرب: من صنع للإنسان فمًا أو من يصنع أخرس أو أصم أو بصيرًا أو أعمى؟ أما هو أنا الرب؟ فالآن اذهَبْ وأنا أكون مع فمك. أعلّمك ما تتكلم به) (خروج ٤: ١٠إلى ١٢).

وورد في القرآن الكريم: [وإذ نادى ربك موسى أن ائْت القوم الظالمين۞ قوم فرعون ألا يتقون۞ قال رب إني أخاف أن يكذبون۞ ويضيق صدرى ولا ينطلق لساني فأرْسِلْ إلى هارون۞] (الشعراء:١١ إلى ١٤).

يتبين مما يذكره القرآن أنه كان هناك شيء من الثقل بلسان موسى، لذلك رجا ربه أن يكلف هارون بهذه المهمة. ويتضح أيضًا من التوراة أنه اعتذر إلى الله تعالى بثقل لسانه عندما أُمر بالذهاب إلى فرعون ودعوته إلى الحق. الآن أمامنا خياران اثنان: فإما أن نفسر هذا الاعتذار بأنه كان بلسان موسى لَكْنة أو كان عنده ضعف في الأعصاب بحيث إذا تحمس في النقاش لم يستطع التعبير عما في نفسه بوضوح، أو كان يتعثر في نطق بعض الحروف والكلمات؛ وإما أن نفسر اعتذاره بأنه كان لا يحسن الكلام بلغة قوم أُمر بتبليغ الحق إليهم. فإذا أخذنا بالخيار الأول لبطل تمامًا استدلالهم بأنه كان مصريًا؛ لأن لَكْنة اللسان

أو غيرها ليس خصوصية للمصريين، بل يمكن وجود هذا العيب في أي قوم آخرين. وإذا أخذنا بالخيار الثاني لكان أيضًا دليلاً قاطعًا على أن موسى لم يكن مصري الأصل لأن التوراة والقرآن يقولان أيضًا أن موسى اعتذر بعدم انطلاق لسانه في الكلام عندما أُمر بالتبليغ إلى المصريين ..أي أنه لا يجيد لغة المصريين.

فقد ثبت من كل هذه الأدلة أن موسى عليه السلام لم يكن مصري الأصل، بل كان من بني إسرائيل كما تقول التوراة والقرآن الكريم.

الكتاب

أما قول الله تعالى (وآتينا موسى الكتاب)، فيعني أننا أعطينا موسى على الجبل بعض الأحكام والوصايا، لأن معنى الكتاب هو الفرائض كما جاء في شرح الكلمات.

لقد اعترض القسيس (ويري) في تفسيره لهذه الآية وقال إنه أحد الأمثلة العديدة الواردة في سورة البقرة التي تكشف عن جهل محمد ﷺ بتاريخ اليهود. يقول القرآن إن موسى أوتي التوراة على الجبل، مع أن التوراة تقول أنه أوتي هناك فقط عشر وصايا في لوحين من الألواح.

أرى أن القسيس (ويري) أولاً يُحسن الظن بالتوراة أكثر مما تستحق، وثانيًا يُكِنّ عداوة للقرآن تحول بينه وبين التدبر فيه، ويرى أنَّ الاعتراض على القرآن كافٍ لنجاته في الآخرة. ونظرته إلى التوراة على أنها صحيحة في هذا البيان بدون شهادة خارجية لنظرة تخالف المنطق السليم؛ فلقد قام كتّاب النصارى أنفسهم بتحريف أبواب وأبواب من التوراة بحيث لا يمكن تصديقها اليوم في أي شيء بدون شهادة خارجية. يقول القسيس أن موسى أوتيَ الألواح على الطور، والقرآن يقول غير ذلك.. فثبت أن هذا قول كتاب كاذب من تأليف إنسان جاهل بالحقائق التاريخية (والعياذ بالله).

ولقد نسي القسيس (ويري) ما سبقت الإشارة إليه من أن إخوانه المحققين النصارى يرون أن ما ورد في التوراة عن موسى وبني إسرائيل ودخولهم إلى مصر وخروجهم منها وغيرها من الأحداث لا أساس لها من الصحة؛ بل إنهم ينكرون وجود جبل الطور الذي تقول عنه التوراة أن موسى تلقى الألواح عنده. ومنهم من اختلف في تعيين موقعه بين مصر والشام وبلاد العرب. ورغم تلك البيانات التوراتية المجروحة تاريخيًا فإن القسيس يرمي محمدًا ﷺ بالجهل بها!! والحق أن قوله هذا إنما يدل على جهله هو الفاضح بحقيقة التوراة وبما نُشر عنها من بحوث علمية مستفيضة بأقلام النصارى أنفسهم.

والدليل على ما يُكِنّه هذا القسيس من تعصب شديد ضد القرآن أن القرآن لم يذكر قط أن كل التوراة نزلت عند الطور، بل ذكر، كما تقول التوراة وكما يقول القسيس، بأن ما نزل هنالك إنما كان بعض

أحكام وألواح. قال الله تعالى:[وكتبْنا له في الألواح من كل شيء موعظةً وتفصيلاً لكل شئ فخُذْها بقوة وأْمُرْ قومَك يأخُذوا بأحسَنِها سأُرِيكم دارَ الفاسقين] (الأعراف١٤٦)

وتبيِّن هذه الآيات أن الله تعالى أعطى موسى الألواح عند الطور، ولكن لا يقول القرآن فيها، كما لا تدعي التوراة، أن موسى لم يُعْط هناك شيئًا مع الألواح. إن ما أعْطِيَه موسى عليه السلام على الجبل – في أثناء انشغال بني إسرائيل بعبادة العجل – مذكور في سفر الخروج في الإصحاحات من ٢٠ إلى ٣١، ولا داعي لذكرها كلها هنا، وإنما نورد مضامينها بإيجاز شديد!

*في الأصحاح ٢٠ ذكرٌ للوصايا العشر التي أوتيها موسى على الجبل.

*في الأصحاح ٢١ أحكام عن العبيد، مَن ثُقِب أذنه منهم، الإماء، جرائم القتل والغدر، وسبُّ الوالدين، والقصاص في الجروح والإصابات من الإنسان والحيوان.

*في الإصحاح ٢٢ أحكام عن السرقة، إحداث الخسائر بالغير، الودائع، القرض، الزنا، السحر، مباشرة الحيوانات، عبادة الأصنام، تعظيم الغرباء، الأرامل، الأيتام، الربا، تعظيم الحاكم، أول الثمار والمحاصيل.

*في الإصحاح ٢٣ أحكام عن التهمة، الشهادة الكاذبة، العدل، النصح، الصدقة، السبت، عبادة الأصنام، الأعياد، دم وشحم الأضحية، الملائكة.

*في الإصحاح ٢٤ ذكر ذهاب موسى إلى الجبل.

*في الإصحاح ٢٥ توجيهات عن كيفية تقديم النذور عند تعمير المعابد، صنع المائدة، هيئة تابوت العهد، المنارة الذهبية، الشمعدان.

*في الإصحاح ٢٦ ذكر لأستار المسكن، والخيمة، وغطاء الصندوق والأبواب.

*في الإصحاح ٢٧ تفاصيل عن مذبح المحرقات وأسبابها، فناء المسكن، وزيت السراج والأعمدة وغيرها.

*في الإصحاح ٢٨ تخصيص هارون وأبنائه للكهانة، أحكام ملابسهم وهيئتهم.

*في الإصحاح ٢٩ تقديم المحرقات لتقديس الكهنة، وعد الله تعالى ببقائه معهم.

*في الإصحاح ٣٠ ذكر لصنع مذبح للبخور، وصفات لصنع الزيت المقدس والبخور.

*في الإصحاح ٣١ توجيهات عامة وذكر تسلم اللوحين.

كيف نسي القسيس كل هذه التعاليم الواردة في هذه الإصحاحات الاثني عشر، وزعم أن موسى لم يُعْطَ على الطور سوى الوصايا العشر واللوحين؟ وكيف استساغ رميَ القرآن الكريم بالجهل قائلا: كيف قال القرآن إن موسى أوتيَ على الطور الألواح وغيرها معها؟

أما قول القسيس بأن القرآن يقول بنزول التوراة كلها على موسى عند الطور فهو قول بلا دليل، لأن كلمة الكتاب في قوله: [وآتينا موسى الكتاب والفرقان] لا تعني كل الكتاب، بل تعني بعض الكتاب.

والقرآن الكريم يطلق اسم الكتاب على رسالة صغيرة أيضًا، فقد ورد فيه أن سليمان كتب رسالة إلى ملكة سبأ وقال لرسوله: [اذْهب بكتابي هذا فألقه إليهم ثم تولّ عنهم فانظر ماذا يرجعون۞ قالت يا أيها الملأ إني أُلقي إلي كتاب كريم۞إنه من سليمان وإنه بسم الله الرحمن الرحيم۞ ألاَّ تعلوا عليّ وأتوني مسلمين۞](النمل:٢٩ -٣٢). فقد أطلق اسم الكتاب على رسالة تتضمن بضع كلمات فقط. فاستنتاج القسيس من كلمة (الكتاب) بأنه التوراة كلها ليس إلا دليلاً على اندفاعه للتهجم على القرآن، سواء أضر هذا بالحقيقة أم أفادها.

الفرقان

لقد نقل القسيس (ويري) في تفسيره للقرآن عن تفسير مسيحي آخر للقرآن: إن هذه الكلمة من أصل شاميّ، ويبدو أن محمدًا ﷺ كان مطلعًا على تفسير للتوراة كتبه (إفرايم الشامي)، الذي استخدم في تفسيره كلمة (الفرقان) للتوراة مرّاتٍ عديدة!!

والقسيس (ويري) متفق معه على أن كلمة (الفرقان) من أصل شامي، ولكنه يعارضه في رأيه أن محمدًا كان مطلعًا على ما كتبه شخص نصراني أو شامي أو عبراني، لأن بيان القرآن للأحداث يختلف كثيرًا عن أحداث تاريخ الكنيسة.. فهو بيان ذو مصدر سماعي وليس من الكتب فقط.

ومسألة اطلاع النبي ﷺ أو عدم اطلاعه على كتاب شخص نصراني شامي مسألة لا علاقة لها بهذا الموضوع. لقد ذهب الرسول ﷺ إلى الشام مع قافلة تجارية لبضعة أسابيع فقط. فالزعم أنه تمكن من تعلم الشامية ودراسة كتبها فكرةٌ لا تخطر إلاَّ ببال إنسان مختل العقل. لقد مكث إخوان القسيس الإنجليز في الهند زمن الاستعمار زهاء أربعين سنة وربما لم يكن منهم إلاَّ واحد بالألف يستطيع قراءة كلمات من اللغة المحلية. وكان معظمهم لا يستطيعون حتى التحدث بها. ورغم هذه الخبرات والمشاهدات، فالقول بأن النبي ﷺ قد تمكن خلال بضعة أسابيع من تعلم لغة الشام بل الاطلاع على كتبها، فضلاً عن أعماله التجارية، ليكشف عن تعصب تمكَّن من قلوب الأقوام المسيحية ضد النبي محمد ﷺ.

أما قولهم بأن الفرقان كلمة شامية فهو أيضًا دليل على جهلهم باللغة العربية. العجيب أن هؤلاء الذين لا يعرفون بدائيات العربية يجلسون لكتابة تفسير للقرآن الكريم وهو القمّة التي لا تُدانى في كمال اللغة وفصاحتها وجمالها!

إن الفرقان كلمة عربية الأصل ولها مشتقات عديدة تكثر في حديث العرب مثل: فَرَق، فرَّق، فارق، أفرق، تفرّق، تفارق، انفرق، افترق، فاروق، فِراق، فَرْق، فرُّوق، فرقان، فُرْق، فِرْق، فَرَقٌ، فريقٌ، فَرْقاء، فِرْقة، فُروقٌ، فريقة، أفرَقُ، تفاريق، مَفْرَق، مَفْرِق، مُفرِق، مُنفرِق، ومفرَّق وغيرها من اشتقاقات كثيرة.

وإذا كانت هذه الكلمة شامية الأصل فمن أين أتت مشتقاتها هذه؟ وإذا كانت عربية الأصل، فكيف يصبح مصدرها شاميًا؟

نعم، كان من الممكن اعتبارها غير عربية إذا لم يكن وزنها موجودًا في هذه اللغة؛ ولكن نجد وزن (فعلان) مستعملاً فيها بكثرة، منها مثلاً: سبحان، وهو اسم الله تعالى؛ وقرآن، وهو اسم الوحي الذي نزل على محمد ﷺ ؛ ونُعمان، وهو اسم إمام الفقه أبي حنيفة؛ وكُفران، أي الكفر؛ فُقدان، أي ضياع الشيء، وغيرها من الكلمات الكثيرة. فعلى الرغم من أن للفرقان في العربية مشتقات كثيرة، وأن وزنها عربي، وهناك مئات الكلمات تماثلها.. إذ زعم أحد أنها شامية الأصل، فزعمه دليل على جهله المطبق. وسوف أُقدّم الدليل الأكبر على كونها عربية الأصل، وأن مادتها مستخدمة في العربية استخدامًا تامًا، أما الشامية والعبرانية.. وهما في الحقيقة مشتقتان من العربية.. فلم تستخدماها بنفس هذه الحكمة والشأن.

وجدير بنا أن نعرف أنه من خصائص اللغة العربية أن اللفظ فيها لا يدل على معنى خاص فقط، بل يشير أيضًا إلى المعاني الأصلية للحروف التي يتكون منها. فهناك ارتباط وثيق بين المعاني التي في الكلمات المشتقة وفي حروف مادتها وفي الكلمات التي تتشابه في مبناها. ويتضح هذا من الأمثلة التالية: فكلمة الفرقان مثلاً التي تتألف من مادة (ف ر ق).. لها معنى خاص بها، ولكن هناك حكمة وفلسفة توجد في كلمة الفرقان وفي كل كلمة مشتقة من مادة (ف ر ق)، حيث تنطوي تلك الكلمات كلها على نفس المعنى أو ضده.. لأن المخالفة في المعنى هي بمنـــزلة المشاركة السلبية.. فعند ذكر معنى من المعاني يرد معه المعنى المخالف تلقائيًا. وهناك كثير من الكلمات في العربية تعطي المعنى وضده، فمثلاً كلمة (الظن) تعني الشك واليقين أيضًا، وكلمة (الرجاء) تعني الأمل والخوف أيضًا. وتسمى مثل هذه الكلمات في الاصطلاح (أضداد). وقد ألف بعض اللغويين كتبًا مستقلة في موضوع الأضداد في العربية، وجمع بعضهم في مؤلفاتهم كل ما ورد في القرآن الكريم من أضداد.

خذ مثلاً كلمة الفرقان المتكونة من حروف (ف ر ق). إذا كوّنا كلمات بتغيير ترتيب هذه الحروف لتضمنت كل كلمة منها المعنى الأساسي في مادة (ف ر ق). فهناك كلمات فَرْق، فَقْر، رِفْق، قَفْر، رَقْف، قَرْف.. وتحمل كل واحدة معنى خاصًا بها، ولكنها أيضًا تشترك في المعنى الأساسي لحروف (ف ر ق)، سواء كانت هذه المشاركة إيجابية أو سلبية. وهذه المشاركة تسمى في الاصطلاح العربي (الاشتقاق الكبير). وهذا يدل على أن كلمة الفرقان عربية.

فمثلاً تعني (فرق) البُعد والخوف. يقال فرَقهما أي أبعد أحدهما عن الآخر، وفَرِق أي خاف. والخوف يتضمن معنى البعد أيضًا، لأن الإنسان إذا خاف شيئًا فرّ وابتعد عنه. والفرقان مصدر فَرَق. جاء في قاموس أقرب الموارد، وهو من وضع عالم نصراني: فَرق يفرق فرْقًا وفُرقانًا.

وتعني (فَقْر) عدم الغنى، فهي تتضمن معنى البُعد لأن الفقير بعيد عن الأغنياء. والبعد ضده الوصل، وهذا المعنى أيضًا موجود في مادة (فقر). يقال فَقَر حباتِ العقد أي نظمها ووصلها بالخيط. وكذلك يسمى العمود الفقري فقرات الظهر لأنها موصولة كالعقد بخيط النخاع الشوكي، ويصل بعضها بالبعض.

و(قَرف) تعني فصل القشر عن الفاكهة وغيرها. يقال قَرَف الجرْحَ: أزال قشره. ومعنى البعد واضحٌ بين هذين المثالين. ويقال قَرَف فلانًا: عابه. وفعل العيب يؤدي إلى التفرقة والبعد. ويقال قرف لعياله: كسب لهم. وقرَف الشيء: خلطه. وقارَف الذنب: قاربه. وهذه الأفعال تفيد الوصل. وهكذا تجمع مادة (ق ر ف) بين معنيي الفصل والوصل.

ثم (قَفَر)، يقال قَفَرَ الأثرَ: تتبّعَه واقتفاه، وتقفَّر أي جمَع؛ وهذا يدل على الوصل. ويقال أقفر المكان أي خلا. والقفر الخلاء من الأرض لا ناس فيها ولا كلأ. وقِفار خبز بدون إدام، يقال أكل خبره قفارًا. وفي هذه الأمثلة معنى البعد.

و(الرِّفق) تعني اللين، وهو داعٍ إلى الوصل والاجتماع. ورَفَق الناقةَ ربط عضدها. والمِرْفق: الموصل بين الساعد والعضد. والرفيق: الصاحب. والرفاقة: الصداقة.. وكل هذه معان تفيد القرب والوصل.

و(الرَّقْف) تعني الارتجاف، وسببه الخوف، وقد سبق ذكر (فَرَقَ) أي خاف.

فكل هذه الكلمات المؤلفة من حروف(ف ر ق) تؤدي معاني من الفصل أو الوصل. وليس هذا الاشتراك في المعنى مقصورًا على الكلمات المؤلفة من حروف (ف ر ق) فحسب، بل يوجد أيضًا في كلمات قريبة منها مخرجًا. فمثلاً لو وضعنا حرف (و) مكان (ف)، أو (ل) مكان(ر)، أو (ك) مكان (ق) لتكونت كلمات تحمل معاني قريبة من (ف ر ق). وعلى سبيل المثال: فلق بمعنى فرق.

فإذا كانت هناك كلمة في العربية، ولها شبيه من كلمات أخرى في مبناها ومعناها، ولها جذور أصلية في اللغة العربية، فلا يمكن أبدًا القول بأنها كلمة غير عربية مستعارة من لغة أخرى. ومن اليسير علينا، بناءً على الاشتقاق الكبير، إثبات أن كلمة فرقان ليست إلاَّ عربية الأصل. ولكن هذا ليس كتاب لغة بل تفسير، فلا أرى مناسبًا أن ندخل في مزيد من التفصيل.

لقد أسلفت القول أن الفرقان تعني لغةً الفرق أو التمييز بين شيئين. أما معناه الاصطلاحي فقد اختلف فيه العلماء. ذكر ابن جرير عن أبي العالية أنه فسّر الفرقان بما فُرِق بين الحق والباطل. ورُوي عن مجاهد قوله بأنَّ المراد به الكتاب، ومعناه الفارق بين الحق والباطل. وعن ابن عباس أن الفرقان اسم جماعي يُطلق على القرآن والتوراة والإنجيل والزبور. وعن ابن زيد أن الفرقان أوتي لمحمد ﷺ وأيضًا لموسى عليه السلام، حيث ميّز الله تعالى بين المشركين والمسلمين يوم واقعة بدر، وميّز بين موسى وأعدائه في حادث البحر.(تفسير ابن جرير).

ويقول العلامة القرطبي أن البعض فسروا قوله: [آتينا موسى الكتاب] بأن الله تعالى أعطى موسى التوراة وأعطى محمدًا الفرقان، وحذفَ اسم النبي ﷺ اختصارًا. ولكن هذا المعنى باطل بالبداهة. ويضيف القرطبي بأن الذين فسروا الفرقان بالكتاب يقولون إن الفرقان توكيد للكتاب. وهذا قول الزجّاج والفرّاء. وفسر بعضهم الفرقان أن الله تعالى نجّاهم من المصيبة، أي أخرجهم من مصر. وقال ابن بحر أن معنى الفرقان الحجة والبرهان. وقال غيرهم أن الواو زائدة، والفرقان صفة للكتاب (تفسير القرطبي).

وخلاصة هذه الأقوال أن المعنى الحقيقي للفرقان هو التمييز بين الحق والباطل، ولكنهم اختلفوا في تعيين الشيء الذي أعطاه الله تعالى لموسى تمييزًا بين الحق والباطل. وأرى أن اعتبار الكتاب والفرقان شيئًا واحدًا لا يستقيم نظرًا لما ورد في القرآن في مواضع أخرى. قال الله تعالى: [ولقد آتينا موسى وهارون الفرقان وضياءً وذكرًا للمتقين] (الأنبياء:٤٩). وتبّين هذه الآية أن الفرقان أوتي لكل من موسى وهارون، فلا يمكن أن يكون معناه التوراة.

لقد وردت كلمة الفرقان في القرآن الكريم بالمعاني التالية:

١ـ القرآن الكريم؛ قال الله تعالى: [تبارك الذي نزّل الفرقان على عبده ليكون للعالمين نذيرا] (سورة الفرقان: ٢). وقال: [شهر رمضان الذي أنزل فيه القرآن هدى للناس وبينات من الهدى والفرقان] (البقرة:١٨٦)، أي أنزل فيه القرآن فيه هداية للناس وأدلة على الهدى، وأدلةٌ ذاتُ فرقان أي مميزة بين الحق والباطل. فالقرآن الكريم مشتمل على الفرقان.

٢ـ النجاة من المصائب والمشاكل؛ قال الله تعالى: [يا أيها الذين آمنوا إن تتقوا الله يجعل لكم فرقانا] (الأنفال:٣٠).

إذا تدبرنا هذه الآيات وجدنا أن معنى الفرقان في الحقيقة هو ما يميّز بين الحق والباطل. وإذا كان موسى قد أوتي فرقانًا فمعناه أنه أوتي ما يستطيع به التمييز بين أصدقائه وأعدائه، وبين الحق والباطل. وإذا كان الرسول ﷺ قد أوتي فرقانًا فمعناه أنه أوتي ما يميز به هو وأتباعه بين الحق والباطل، ولاستطاع به مخالفوه معرفة الحق لو أرادوا. فإذا كان الله تعالى قد وعد المؤمنين بالفرقان، فمعناه أنه سيرزقهم ما يستطيعون به معرفة طريق الخلاص من المشاكل. لذلك فلا داعي لتضيق معاني الفرقان بيوم بدر أو نجاة بني إسرائيل من البحر فقط. لا شك أن غزوة بدر سميت فرقانًا، وكذلك خلاص بني إسرائيل سمي فرقانًا.. ولكن ليس هذا فقط ما أوتي النبيان الكريمان عليهما السلام، بل أوتي موسى عليه السلام عشرات المعجزات، وأوتي النبي ﷺ آلاف المعجزات علاوة على ذلك. فإذا سمّى القرآنُ معجزةً معينة فرقانًا - كما سمّى بدرًا فرقانًا - سنفسر الفرقان هناك بذلك المعنى الخاص، ولكنه إذا قال (فرقانًا) على إطلاقه فلا يصح تحديد معانيه.

الحق أن كل نبي يُعطى شريعة سواء أُنزلت عليه أو على نبي سابق ويُؤمر باتباعها، وكذلك يعطى فرقانًا، أي آيات تميز بين الحق والباطل. والفرقان هو الوسيلة الحقة لمعرفة صدقه. ولجهل الناس هذه الحقيقة رفضوا في كل زمن أنبياء صادقين أو وقعوا في شراك الكذابين. إن صدق أنبياء الله تعالى لا يتأسس على أمر واحد وإنما يُعطَون عشرات الآيات التي تشكل في مجموعها شهادة على صدقهم وعلوّ درجتهم. هناك من الناس من يحسبون أنفسهم مأمورين من الله تعالى بسبب بضعة أحلام وإلهامات، مع أنها قد تكون من قبيل وسوسة النفس والشيطان، أو نتيجة أمراض وتخيلات، وقد تكون أيضًا من الله الرحمن. وإن تحقُّق حلم أو إلهام ليس دليلاً على أنه من الله تعالى، لأن بعض الأمور الخيالية والطبيعية قد تحدث، فإلهامات بعض الطبائع الضعيفة ليست ميزة لها. وأما وحي الأنبياء له شأن خاص. إنه ذو سعة عظيمة، ويناسب حاجات العصر وهو علاج لمفاسد الزمن. وإلى جانب أصحابهم العظام وإلهاماتهم العظيمة الشأن فإنهم يمتازون حتى قبل دعواهم بحياة طاهرة معصومة. قال الله تعالى على لسان النبي ﷺ: [فقد لبثتُ فيكم عمرًا من قبله، أفلا تعقلون] (يونس:١٧).. أي قد يكون هناك خطأ في الإلهام بسبب مرض أو ضعف العقل.. ولكن من الصعب أن يُنسب الضعف العقلي إلى إنسان له هذا الشأن.

فالإلهام الصادق أيضًا دليل، والحياة الطاهرة قبل الدعوى أيضًا دليل، ولكنهما إذا اجتمعا أصبحا دليلاً ثالثًا عظيمًا، وهو الفرقان.

ثم يسوق القرآن الكريم دليلاً آخر على صدق الرسول ﷺ قائلاً: ألا تنظرون إلى وجوه المؤمنين به؟ أليسوا في ذاتهم دليلاً قويًا على صدقه؟ فالناس عمومًا على درجات وطبقات؛ منهم سيئو الخلق، ومنهم الطامعون، ومنهم الجاهلون، ومنهم السذّج.. ولكن يوجد بين المؤمنين به ﷺ من تبوّء مكانة عالية في فنه وعقله وعلمه قبل الإيمان. وإيمان مثل هؤلاء في حد ذاته دليل قوي على صدقه ﷺ. فالذين كانوا ذوي أناة وحلم، وكانوا من أهل العلم والحجة، والبذل والعطاء والبر بالفقراء، ومن ذوي المهارة في مهنهم وفنونهم.. ولم يكونا من أهل الجهل وسوء العمل، ما الذي دعاهم للتعرض إلى الإساءة والتحقير من قومهم.. باتباع إنسان إن لم تكن فيه الآيات الدالة على صدقه؟

ثم ذكر الله تعالى أن آية صدق الرسول ﷺ هي هلاك مناهضيه. وهذا في حد ذاته دليل عظيم، ولكنه إذا اجتمع مع الأدلة الثلاثة السابقة لشكل دليلاً له شأنه العظيم.

كذلك من الأدلة على صدق الرسول ﷺ أنه قضى على المفاسد المنتشرة في زمنه، وأصلح الأخطاء العلمية والعقائدية والعملية. وهذا بنفسه دليل قوي، ولو أضيفت إليه الأدلة السابقة لنهض صرحًا شامخًا على صدقه ﷺ.

إننا نُقرُّ بأن بعض الإلهامات تكون طبْعية وخيالية، ونقر أن بعضها تتحقق أحيانا، ولكن من الصعب جدًّا أن نصدّق أن هذه الإلهامات الخيالية والطبْعية التي هي نتيجة لضعف عقلي أو هذه الإلهامات الشيطانية التي هي نتيجة لضعف عقلي وخُلُقي.. لم تجِدْ غيرَ شخص كان قومه يشهدون على طهارة حياته ورجاحة عقله وموفور حكمته. وحتى لو سلَّمنا جدلاً بهذا الأمر المتعذّر، فإنه من الأشد صعوبةً أن نقبل أن شخصًا صالحًا اختل عقله وادعى أمورًا غير معقولة، ومع ذلك صدّقه عقلاء قومه وفضلاؤهم الذين كانوا يعرفونه عن قرب. ثم لو مضينا في التسليم بحصول هذا الخطأ أيضًا فمن الأشد استحالةً أن نقبل بأن مثل هذا الشخص المخبول قام بإصلاح الأفكار الخاطئة المنتشرة في زمنه؛ سواء في العقيدة أو العلم أو العمل.

يُقِرّ المعترض أن محمدًا ﷺ ادّعى تلقي الوحي السماوي؛ ويقر أن بعض هذا الوحي قد تحقق وإن كانة مصادفة؛ ويُقر أن حياة محمد ﷺ قبل دعواه كانت طاهرة تمام الطُهر؛ ويُقر أن المؤمنين به كانوا ممن يعرفونه عن كثب حق المعرفة، وكانوا مشهودًا لهم برجاحة العقل وسعة العلم وصالح العمل؛ ويُقر أن هؤلاء الذين آمنوا بمحمد ﷺ قد انتصروا مصادفة، وأن أعداءهم انهزموا مصادفة أيضًا؛ ويُقر أن الشرك قبيح وأن محمدًا ﷺ وفَّق في القضاء عليه؛ ويُقر بأن محمدًا ﷺ أصلح عشرات العقائد الفاسدة.. بعد كل هذه الإقرارات مجتمعة.. من يستطيع القول أن محمدًا ﷺ - والعياذ الله - كان مختل العقل أو تحت تأثير الشيطان. يمكن أن يشكك أحد في كل دليل على حدة، وينظر إليه منفصلاً عن غيره كحادث من حوادث المصادفات، ولكن اجتماع كل هذه الأدلة ومئات غيرها في إنسان لا يمكن أبدًا أن يكون من المصادفات. وإذا كانت هذه الدلائل مجتمعة محل شبهة فليس في الدنيا شيء يتّسم باليقين.

ومثل هذه المجموعة من الدلائل هي الفرقان في نظري. وقد أوتيتْ مثل هذه المجموعة لموسى، وأوتيت لداود، وأوتيت لعيسى ، وأوتيت لنبينا محمد، وأوتيت اليوم لمؤسس الجماعة الإسلامية الأحمدية سيدنا المهدي والمسيح الموعود عليهم أزكى الصلاة والسلام.

يعترض المخالف دائمًا على كل دليل بمفرده، وينسى أن الاعتراض ممكن على كل شيء. يجب أن يلاحظ الإنسان كيف اجتمعت عشرات الأدلة المتنوعة في المدّعي. إذا توافرت لأحد مثل هذه المجموعة فيمكن الجزم أنه أوتي فرقانًا، وأنه من الله تعالى، وأن هذا الفرقان لا يمكن أن يُعطى لكاذب.

بيد أن رسولنا محمدًا ﷺ يمتاز عن سائر الأنبياء. ذلك أن هؤلاء أوتوا فرقانًا وكتابًا، ولكنه ﷺ أوتي الفرقان وأوتي الكتاب الذي كان بنفسه فرقانًا. لقد كانت توراة موسى بحاجة إلى معجزات أخرى، أي الفرقان كي يثبت صدقها؛ وكان وحي عيسى بن مريم يحتاج إلى معجزات أخرى، أي الفرقان، كي يتبين صدقه؛ ونفس الحال بالنسبة لكتاب الفيدا الهندوسي، وكتاب الزند ال زرادشتي، ولكن الكتاب

الذي نزل على محمد ﷺ لا يحتاج إلى أدلة أخرى لبيان صدقه.. لأنه بنفسه فرقان.. أي إنه كتاب حيّ، ولو أن الناس نسوا المعجزات الأخرى فإنه رغم ذلك يُثبت صدق نفسه بنفسه.. لما يحتوي عليه من أدلة وبراهين؛ ومن أجل ذلك سُمي فرقانًا . وليس هناك كتاب سماوي من الكتب السابقة أوتي هذا الاسم. ووعد الله تعالى المؤمنين بالقرآن أنه: [يجعَل لكم فرقانًا] أي لما كان هذا الكتاب فرقانًا فإن المؤمنين به إيمانًا كاملاً يُعْطَون فرقانًا من الله.

هذا الفرقان دليل يبلغ من القوة والشمول بحيث إذا فهمه الإنسان وحاول معرفة صدق الأنبياء على ضوئه لم يصعب عليه أن يتعرف على مأمور زمنه.

قوله تعالى: [لعلكم تهتدون]. حرف (لعل) لا يفيد هنا الشك، بل هو من الأساليب المَلَكية، فيقول الملوك في أوامرهم مثلاً: إننا نأمل من الشعب، والمراد أنه أمرٌ منهم للشعب، فالمعنى: أننا أعطينا موسى نعمة الكتاب والفرقان لكي يهتدي بها بنو إسرائيل، ولكن الأسف أنهم ما استفادوا من الكتاب ولا من الفرقان، و لم يقدِّروا نِعَمنا حق قدرها ومسخوا فطرتهم، فكانت عاقبة ذلك حرمانهم من الهداية.

﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَاقَوْمِ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنفُسَكُمْ بِاتِّخَاذِكُمُ الْعِجْلَ فَتُوبُوا إِلَى بَارِئِكُمْ فَاقْتُلُوا أَنفُسَكُمْ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ عِنْدَ بَارِئِكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾ (٥٥)

شرح الكلمات:

بارئكم: برأ اللهُ الخلق: خلقهم. البارئ: الخالق.

اقتلوا: قتله: أماته بضرب أو حجر أو سُمّ أو عِلّة. قتله الجوع أو البرد: كسر شدته. قتل الله الإنسان وقاتله: لعنه (الأقرب).

﴿اقتلوا أنفسكم﴾ أي ليقتل بعضكم بعضًا. وقيل عَنى بقتل النفس: إماتة الشهوات. يقال: قتلت الخمرَ بالماءِ إذا مزجته به. قتلت فلانًا وقتَّلته إذا ذلّلته (المفردات). وفي حديث السقيفة عندما اجتمع الصحابة بعد وفاة النبي ﷺ لانتخاب خليفة له، واختلف بعضهم ومنهم سعد، فقيل فيه: قتل الله سعدًا فإنه صاحب فتنة وشر: أي دفع الله شره. وفي رواية أن عمر ﷺ قال يوم السقفية: اقتلوا سعدا، قتله الله! أي اجعلوه كمن قتل واحسبوه في عداد من مات وهلك، ولا تعتدّوا بمشهده، ولا تعرّجوا على قوله. وفي حديث عمر أيضًا: من دعا إلى إمارة نفسه أو غيره من المسلمين فاقتلوه، أي اجعلوه كمن قُتل ومات.. بألاّ تقبلوا له قولاً ولا تقيموا له دعوة. وكذلك الحديث الآخر: إذا بويع لخليفتين فاقتلوا الآخَر منهما: أي أبطلوا دعوته واجعلوه كمن قد مات (اللسان).

فالقتل، علاوة على المعاني المعروفة يعني أيضًا: التذليل والمقاطعة.

التفسير: بيّنت الآية السابقة أن بني إسرائيل عصوا الله تعالى بينما كان يحسن إليهم، وهنا ذكر أن أئمة الكفر منهم كانوا يستحقون العقوبة، لأن العفو التام عنهم على جريمة الشرك كان من شأنه أن يشجعهم على المعاصي. فقال: يا بني إسرائيل، لقد ظلمتم أنفسكم بالشرك ظلمًا عظيمًا، لذلك توبوا إلى بارئكم. ومعنى البارئ الخالق، ولكن هناك فرق بين الكلمتين. فبرأ يعني: خلق بدون عيب أو نقص. يقول الزمخشري: البارئ هو الذي خلق الخلق بريئًا من التفاوت (الكشاف). وقد أيّده العلامة أبو حيان، وهو من كبار علماء النحو واللغة. وتفسيره (البحر المحيط) من أرقى التفاسير، وقال بأن استدلال الزمخشري هذا حَسَنٌ ولطيف.

وقد استنبط الزمخشري هذا بناء على المعنى الأصلي للبرء وهو الخلو من العيب والنقص.

وقال صاحب اللسان أن الفرق بين الخلق والبرء أن الخلق يستخدم لكل مخلوق، أما البرء فيستخدم عمومًا لذوي الأرواح.. تقول العرب: خلق الله السماوات والأرض، وبرأ الله النسمة. وكأن البرء يستعمل لإيجاد مخلوق أكمل وأرقى. وقد استخدم القرآن البرء لخلق المصائب (سورة الحديد:٢٣).. وهذا الاستعمال بسبب المشاركة مع ذوي الأنفس والأرواح، وإلاَّ فلا يعني ذلك أن البرء يستعمل لغير ذوي الأرواح، يقول الله تعالى: [هو الله الخالق البارئ] (الحشر:٢٥). وقد جمعت الآية الصفتين، مما يدل على أن هناك فرقًا بين معناهما. فالله تعالى بارئ بمعنى أنه لا يخلق الخلق فقط، بل يخلقه مزوَّدًا بأخلاق وقوى متطورة قابلة للازدهار.

فكلمة البارئ في قوله تعالى: [توبوا إلى بارئكم] إشارة لطيفة لدحض الشرك الذي وقعوا فيه. لقد نحت بنو إسرائيل صنمًا، والواضح أن الخالق أفضل من المخلوق، والناحت خير من المنحوت، والمصوّر أسمى من الصورة لأنه قادر على رسم مثلها بل أفضل منها. أيها الحمقى، تخرون ساجدين لما صنعتموه بأيديكم وهو جماد تافه ولا حياة فيه؛ ولكن الذي صنعكم بهذه الحياة صنعة كاملة فنسيتموه. إن الصانع أفضل من صنعته، وأنتم أعظم من الصنم الذي صنعتموه بأيديكم فلا يستحق عبادتكم، وأنا الذي صنعتكم، فكان الأولى بكم أن تلتفتوا إليَّ وتعبدوني وحدي ولا تقعوا في هذا الشرك القبيح.

فبقوله تعالى: [توبوا إلى بارئكم] ألقى الضوء على ضرورة التوبة وكذلك على حقيقة أن التوبة الحقيقية هي التي تكون إلى الله وحده. وهكذا حَشَد في ثلاث كلمات معاني تحتاج إلى كتاب، فكأنه أدخل البحر في إناء.

قوله تعالى: [فاقتلوا أنفسكم]..كما سبق في شرح الكلمات فإن القتل يعني القتل الظاهري، وكذلك الإعراض والمقاطعة. لقد ذهب المفسرون إلى أن القتل هو قتل أهواء النفس، ولكن يتبين من الكتاب

المقدس أن بعض أئمة الجريمة عوقبوا بالقتل. ولقد ذكر الله تعالى أمر العفو العام أولاً، ثم أتبعه بذكر شناعة هذه الفِعلة من اليهود على وجه خاص، فيبدو من ذلك أن بعض الناس قد عوقبوا فعلاً بالقتل.
تذكر التوراة في هذا الصدد قول موسى عليه السلام لبني لاوي: (هكذا قال الرب إله إسرائيل: ضعوا كل واحد سيفه على فخذه، ومروا وارجعوا من باب إلى باب في المحلة، واقتلوا كل واحد أخاه، وكل واحد صاحبه، وكل واحد قريبه، وفعل بنو لاوي بحسب قول موسى. ووقع من الشعب في ذلك اليوم نحو ثلاثة آلاف رجل) (خروج ٢٧ :٣٢-٢٨). ثم تقول التوراة إن موسى ابتهل إلى الله طالبًا الرحمة وقال: (آه، قد أخطأ هذا الشعب خطية عظيمة وصنعوا لأنفسهم آلهة من ذهب. والآن إن غفرت خطيتهم وإلاَّ فامحني من كتابك الذي كتبت) (خروج٣٢:٣٢). ثم ورد أن الله تعالى عفا عنهم كقوم، ولكن لم يعف عن أئمة المجرمين كأفراد، بل قال: سوف أحاسبهم يوم القيامة (المرجع السابق:٣٤).
يظهر من عبارات التوراة هذه أن هؤلاء المجرمين عوقبوا بالقتل، ثم رفع الله تعالى العقوبة القومية عنهم رحمة لهم بسبب دعاء موسى، ولكن العقوبة يوم القيامة لكبار المجرمين لم تزل في انتظارهم.
هناك شيء من الاختلاف بين بيان الكتاب المقدس وبيان القرآن الكريم، فقد ذكر القرآن أن العفو القومي كان أولاً، ثم كان تنفيذ العقوبة على قادة الجريمة، أما التوراة فتقول إن تنفيذ العقاب على قادة المجرمين كان أولاً ثم صدر العفو القومي من الله تعالى. ولا نجد مصدرًا تاريخيًا يتناول هذا الحادث سواهما. ولكن رأينا عمومًا أن شهادة التاريخ عند توافرها في مناسبات الاختلاف الأخرى كانت دائمًا في جانب القرآن الكريم؛ ومن ثم نجد أن بيان القرآن هو الأولى بالقبول.
كما توجد هناك شهادة فطرية. فالعادة أنه عندما يرتكب فريق من الشعب جريمة قومية يثور ضدهم الآخرون، وإذا صدر عفو كان عفوًا عامًا، ثم يعاقب المحرضون وكبار المجرمين. وهذه الشهادة أيضًا في صف البيان القرآني. فعندما أخبرهم موسى بسخط الله على الجريمة ندموا، وعندما ابتهل موسى إلى الله طمأنه الله تعالى بأن شعبه لن يهلك جميعه ولكن أئمة الكفر يستحقون عقابًا لازمًا.
ورواية التوراة تقول إن الله تعالى أمر بقتل جميع الشعب، وتم تنفيذ الأمر، ثم لما ابتهل موسى إليه تعالى عفا عمن نجوا من القتل. وهذا الترتيب التوراتي للأحداث غير طبيعي وظالم أيضًا؛ وكأن من قُتل فقد قُتل، ثم شمل العفو الآخرين بصرف النظر عن كونهم من أئمة الكفر أم من الأبرياء! وكأنه عند العقوبة لم يلاحظ أهمية الجرم فسوى بين الجميع، وعند العفو أمر بوقف تنفيذ العقوبة فجأة، فنجا الباقون أبرياء ومجرمين، مع أن العقوبة التي تصدر بحسب القانون الشرعي تنفذ بحسب أهمية الجريمة. هذا، وإن كانت سُنّة العقاب الطبيعي بطريق الكوارث والنوازل لها قواعد أخرى، فإنها تنزل بالجميع ولا تفرق بين أحد منهم.

فثبت مما سبق أنه بحسب قانون العدل والإنصاف فإن القرآن هو الصواب.. الذي يقول بأن من وقعوا جهلاً أو رهبة من الآخرين استحقوا العفو، وأما أكابر المجرمين فاستحقوا العقاب.
ويجب تذكر أن قوله تعالى:[فاقتلوا أنفسكم] لا يعني أن انتحروا بل يعني اقتلوا أئمة الجريمة من أقاربكم وأصدقائكم كما جاء في التوراة. ورد في القرآن الكريم: [ولا تخرجون أنفسكم من دياركم](البقرة:٨٥)..بمعنى لا تخرجوا إخوانكم من ديارهم، وقال أيضًا: [فلا تظلموا فيهن أنفسكم](التوبة:٣٦)، أي لا يظلم بعضكم إخوانه في الأشهر الحرُم، وقال أيضًا: [فإذا دخلتم بيوتًا فسلِّموا على أنفسكم تحية من عند الله مباركة طيبة](النور:٦٢).يعني: سلموا على أقاربكم وإخوانكم في هذه البيوت.

ويبدو أن الأمر كان بقتل أئمة الجريمة على يد أقربائهم وإخوانهم. وكان لهذا الأمر مصلحتان: الأولى إيقاع العقوبة بالمجرم قتلاً، وايقاع العقوبة بالمنفذ بقتل صاحبه بيده ومشاهدة مقتله بعينيه؛ والثانية: أن نظام بني إسرائيل كان يقوم على القبائل، والعداوة بين القبائل تكون شديدة، فلو كان منفِّذ العقوبة على أحد من غير قبيلته لثارت العداوات والأحقاد على أشدها، واشتغلوا بها ونسوا جريمة المقتول، ولغلبت عليهم فكرة الثأر. فكان هذا الأمر الإلهي نجاة لهم من الوقوع في المزيد من الفتن وإصلاحًا لقلوبهم بطريق شعورهم بالألم.

لقد أُمر بنو إسرائيل بهذا الأمر الإلهي لهذه الحكمة، ولربما عملوا به كرهًا. ولكن فيما يتعلق بالرسول ﷺ فإن أحد أصحابه تطوع بمثل هذه الخدمة مما يدل على أن الذين عاشوا في صحبته ﷺ وصلوا إلى ذروة مكارم الأخلاق. كان الرسول ﷺ قافلاً من غزوة بني المصطلق فعرّجوا للراحة عند موضع. وكان هناك بئر واحدة، وكان هناك زحام لكثرة الوُرّاد. واختلف شخصان على الماء وتشاجرا. وتصادف أن أحدهما كان أنصاريًا والآخر من المهاجرين. ولما تصايحا انقسموا فجأة ولا شعوريًا إلى فريقين كادا يقتتلان. فانتهز رأس المنافقين عبد الله بن أُبيّ بن سلول هذه الفرصة التي سنحت له وقال مؤلبًا الأنصار: أنتم بأنفسكم أركبتموهم على أعناقكم وإلاَّ ما استطاعوا أن يذلونا هكذا: [لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل](المنافقون:٩).. يعني بقوله أن أعز رجل في المدينة، يريد بذلك نفسه، سوف يطرد منها أذل رجل منها، يقصد النبي ﷺ والعياذ بالله، وهذا هو المعنى الذي فهمه الصحابة من قوله. وربما يكون مراده أن الفريق الأعز، أي الأنصار، سوف يطردون من المدينة الفريق الأذل، أي المهاجرين. وأيًا كان المعنى فالنتيجة واحدة.

وكان الصحابة وقتها في حماس وشجار، ولكنهم ما أن سمعوا هذه الكلمة الكريهة من عبد الله بن أُبي بن سلول حتى رجعت إليهم عقولهم، وفطن الأنصار فورًا إلى أنهم في لحظة امتحان شديد لإيمانهم، فأنهوا

الشجار على الفور وافسحوا المكان للمهاجرين، وأما المهاجرين فقد هدأوا كذلك. ثم أخذ الأنصار يتلاومون بأنّا لا نستحق الحياة بعد ما صدر من ابن سلول. ولما بلغ الخبر ابن رئيس المنافقين قرّر أن أباه لا يستحق الحياة بعد جريمته النكراء هذه. فجاء النبيَّ ﷺ وقال: يا رسول الله، هل بلغك ما قاله عبد الله؟ قال ﷺ: نعم. قال: يا رسول الله، هل له عقوبة غير القتل؟! إن كنتَ آمرًا بقتله فمُرْني أضرِبْ عنقه، لأني أخاف أن يقتله غيري فتثور نفسي وأقتل قاتله، فأقتل مؤمنًا بكافر. (السيرة النبوية لابن هشام).

لاحِظوا النظر الثاقب للصحابة! فابن زعيم المنافقين لا يريد قتل أبيه الذي أساء إلى النبي ﷺ إلا بيده، إذ كان يعرف أن المجرم مهما كان ذا مكانة وجاه فهو أبوه، وإنما يريد قتله بيده لكيلا ينشأ في قلبه بغضٌ نحو أخٍ مسلم. فكأن الحكمة التي وجّه الله إليها أنظار بني إسرائيل بالوحي الجليّ..توصّل إليها أصحاب الرسول بأنفسهم عن طريق الوحي الخفي الذي هو ثمرة نور إيمانهم، رضي الله عنهم ورضوا عنه!

قوله تعالى:[ذلكم خير لكم عند بارئكم] إشارة إلى ما ذكرت آنفًا..أي أن إنزال العقوبة بأئمة الشرك خير لقومكم، لأن حالة قلوبكم سيئة لدرجة أن العفو لا يصلحها وحده، بل لا بد من قَدْرٍ من العقوبة. ويشير أيضًا إلى أن في قتل الأقارب بيد الأقارب، والأصدقاء بيد الأصدقاء خيرًا لكم، لأن قتلهم بيد غيرهم سوف يثير بينكم فتنة البغض والانتقام التي لن تنتهي؛ خصوصًا وأن دافع الانتقام عندكم شديد لا تخبو ناره.

قوله تعالى: [فتاب عليكم]..يعني توجّه الله إليكم بفضله ورحمته.. أي تناسى جريمتكم بعد توقيع هذه العقوبة. وما ذكّركم بها إن لم تكونوا قد ارتكبتم مزيدًا من الجرائم.

وقوله تعالى :[إنه هو التواب الرحيم]..أي يقبل التوبة مرة بعد مرة، وينظر إليكم بعين الرحمة الواسعة المتكررة. وما حدث لكم فيما بعد كان بسبب ما ارتكبتم من المعاصي والمساوئ المستمرة، وهو دليل على أنكم لم تقدروا العفو الإلهي العظيم الذي صدر رغم شناعة جريمتكم.

تذكر التوراة أنه قُتل في ذلك اليوم ثلاثة آلاف، ولكن هذا مخالف للعقل تمامًا. فإذا كان أئمة الشرك وحدهم ثلاثة آلاف لكان عدد الجميع مئات الألوف. ولكن عدد إسرائيل في ذلك الوقت لم يكن بذلك القدر، لا بحسب التاريخ ولا بحسب الأحداث. ففي زمننا هذا الذي تيسرت فيه وسائل السفر على شتى الأنواع لا يستطيع مئات الآلاف بهذه التسهيلات عبور صحراء سيناء، فكيف استطاع بنو إسرائيل في ذلك الزمن عبورها بوسائلهم البدائية مع نسائهم وأطفالهم وأمتعتهم؟ بحسب ما يتبين من القرآن، وبحسب شهادة العقل لم يكن هؤلاء المهاجرون يتعدون بضعة آلاف. وربما عدد القتلى بضعة أفراد وبالغ كتاب التوراة فيما بعد وجعلوه ثلاثة آلاف.